المنارة

ALMANARAH

العـدد السادس مايو ١٩٩٠ م

مجلة ادبية ثقافية ـ تصدر فصلياً عن اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين (فرع عدن)

■ العربية السعيدة

■ اليمن وهولندا

■ الصيدروس

الشيخ عثمان

نقافة عدن الزريبية

المحتويات

الصفحة

الافتتاحية: اليمنيون يصنعون تاريخهم ٩

دراسات ومقالات:

- سعيده وبدايات الكتابة الروائية في اليمن: هشام علي ٦
- رد الجرادة على ارجوزة الإمام أحمد: د. سعيد محمد عبده ١٧
- قراءة في كتاب «الانتفاضة والدولة الفلسطينية»: عبدالله أحمد العود ٢٣
- واقع الأغنية اليمنية وآفاق تطورها: محمد أحمد بن عيسى ٣٣

تاريخ وتراث:

- ثقافة عدن الزريبية: أحمد صالح رابضة ٥١
- ولي الله الصالح العيدروس ٩١
- الشيخ عثمان: عبدالله أحمد محيرز ٩٧
- قصة مصافي عدن: ترجمة صلاح الغبري ١٠٤
- هولندا واليمن: حسين محمد سعيد ١١٢
- أكلات شعبية من عدن: علوي عبدالله طاهر ١٢٩

شعر:

- وامنح قاتلي... وردا: الغزي عبد الرحيم ١٣٦
- ظهورات الحلاج: شوقي شفيق ١٤٠
- غصة: محمد ناصر شراء ١٤٣
- سوناتة: جمال محمد السيد ١٤٥

قصص:

- القرية التي توهجت: حسين سالم باصديق ١٥٠
- البدلة: عبدالله سالم باوزير ١٥٦
- أبي والريال: سليمان قائد شرف ١٦١

ندوة:

- التكامل والوحدة في العربية السعيدة ١٦٤

آفاق ثقافية:

- متابعات وأخبار ١٨٩

كتاب العدد:

- اليمن: رحلتي إلى صنعاء: ماروك انجرامز. ترجمة حامد جامع ١٩٥

«ثقافة عدن الزريعية»

أحمد صالح رابضة

١٠٧٧م-١١٧٣م
٤٧٠هـ-٥٦٩هـ

الأوضاع السائدة في اليمن قبل ظهور بني زريع (٤٧٠ - ٥٦٩هـ):

قبل أن نُفضي إلى موضوعنا الأساسي، ينبغي أن نستعرض وبإيجاز، الأوضاع السياسية في اليمن قبل ظهور آل زريع، وقد يكون من المفيد أن نُجمّل آراء بعض المؤرخين والكاتبين الذين أرّخوا لهذه الفترة الممتدة من بعد منتصف القرن الرابع إلى أوائل القرن الخامس وما بعده، وهي فترة اتّسمت بالتفكّك والشقاق بين أبناء اليمن الواحد. فقد عمَّ الخراب والدمار والانحلال مدن اليمن، فتغلبت همدان على صنعاء، وبنو معن على عدن وما يصاحبها، وبنو الكرندي على السمدان وغيره من الحصون في سبر والجند، والأئمة الزيدية على صعده، وآل زياد على تهامة وأبو عبدالله الحسين التبعي على حصن حب وعزان والشعر والسحول والنقيل، - وبنو وائل على مخلاف وحاظة وبنو عبدالواحد على برع ولعسان[1].

وكانت العلاقات بين هذه الدويلات والسلطنات رديئة، فكل دويلة تتربّص بأختها الدوائر وتتوخّى تقويض دعائمها. وكان فتيل الحرب بينهما مشتعلاً. ولما كان عام ٤٣٩هـ تألق نجم الزعيم اليمني الفاطمي علي بن محمد الصليحي الذي

(١) تاريخ اليمن (المفيد) عمارة ص ٨٦ - ٩٤، انظر الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور للأستاذ جرادة ص ٩٤ - ١٠٧ - ١٠٨.

تشبّع بمبادىء الدعوة العلويّة الباطنية الرافضية في عدن لاعة وكانت حينها مصدر إشعاع لهذا المذهب، كما يقول الأكوع[2] فشنّها حرباً لا تُبقي ولا تَذَرْ، على هذه الدويلات، فقوّض ركائزها ودانت له بالطاعة وانضوت تحت لوائه وسيادته.

وشخص ابنه المكرم إلى عدن وأخرج منها بني معن وولّاها زعيمين همدانيين إسماعيليّ المذهب هما العباس، والمسعود ابنا المكرم الجشمي اليامي من أنصار الصليحي ومؤيديه[3].

ومنذ ذلك الوقت وحتى عصر بني أيوب، وعدن بمثابة إقطاعية من إقطاعيات الدولة الصليحية يحكمها بنو زريع وبنو الغارات الذين استطار الشقاق بينهم وأفضت السلطة بعد معارك دامية إلى آل زريع.

لقد شهدت هذه الفترة اضطراباً وتفككاً رهيبين في اليمن، فلا مناص من أن تثور ثائرة الأمة ممثلةً في بعض زعاماتها وتُعيد الأمور إلى نصابها وتوحّد الأرض المجزّأة التي فتك بها الانحلال السياسي. وكان عليٌّ هذا خير ممثّل يهيب بأنصاره ومؤيديه للحرب والنضال من أجل توحيد الأرض اليمنية، فتوحدت الولايات وهدأت الأحوال واستقرّت الأمور، ولكن هذه الفترة لم يطل أمدها كما يرى بعض الدارسين[4] فقد انتهت بوفاة الملكة أروى عام ٥٣٢هـ فعاد الانحلال الذي كان قبلئذٍ إلى اليمن وراح ينخر في جسمه المنهوك، **واستقل كلّ سلطان بمنطقة نفوذه. فآلُ زريع الذين نحن في صدد تاريخهم يسيطرون على عدن وأبين والدملوه وتعز** وغيرها وسلاطين جنب يستحوذون على ذمار والمناطق التابعة لها، وعلي بن حاتم اليامي على صنعاء وأعمالها، وآل الدعام على الجوف وبنو الهادي على صعدة وما يليها، وأولاد الإمام القسم بن علي العياني على شهارة، وأولاد عمر بن شرحبيل

---

(٢) تاريخ اليمن، عمارة هامش ص ٦٤، انظر أيضاً الحكمة عدد ٢٧ فبراير ـ مارس ٧٤م (تاريخ اليمن الإسلامي) سلطان ناجي ص ١٠.

(٣) قرة العيون لابن الديبع تحقيق الأكوع ٤٠٣/١ انظر أيضاً الحكمة عدد ٢٧ فبراير مارس ٧٤م مقال سلطان ناجي ص ١٠، والأدب والثقافة جرادة ومعالم تاريخ الجزيرة العربية ـ باوزير، ص ـ ١٩٠ ـ ١٩٤ وتاريخ المستبصر لابن المجاور ـ ص ١٢١ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى الأتابكي ١١٢/٥٨/٥، تاريخ ثغر عدن ص ٤٠ وتاريخ اليمن (مخطوط) خزرجي ص ٨٤ والسلوك في طبقات العلماء والملوك (مخطوط) الجندي ٢ وغيرها.

(٤) الأدب والثقافة في اليمن ـ جرادة ص ١٠٨.

الجصوري على الجريب وما حوله، وابن الدهاس السليماني على تهامة وحرض، وعبدالنبي بن علي بن مهدي على زبيد والمناطق الممتدة إلى حرض[٥].

قيام دولة آل زريع في عدن

بنو معن في عدن:

بعد وفاة الحسين بن سلامة صار أمر عدن ولحج ونواحيها إلى بني معن[٦] وهم قوم من حِمْيَر كما يقول الأكوع[٧] وقد وهم بعض المؤرخين فعدّوهم من بني معن بن زائدة الشيباني[٨]. ولما استولى الزعيم اليمني الفاطمي علي الصليحي ابقاهم في عدن على أن يدفعوا الخراج للدولة الصليحية، ثم امتنعوا عن ذلك فأخرجهم منها ابنه المكرم أحمد الصليحي وولاها الزعيمين السالف ذكرهما وهما العباس والمسعود ابنا المكرم الجشمي اليامي اللذان آزرا الدعوة ودافعا عن حياضها.

آل زريع في عدن:

وكان العباس أميراً على حصن التعكر وباب البر والمسعود على حصن الخضراء وباب البحر، ويقومان بدفع المدخول للسيدة الحرة[٩]، ولما قتل زريع وعمه مسعود في بعض غزوات المفضل بن أبي البركات آل أمرُ عدن إلى ولديهما أبي المسعود بن زريع وأبي الغارات بن مسعود اللذين امتنعا عن دفع مدخول عدن فبعث إليهما المفضل بن أبي البركات ثم أسعد بن أبي الفتوح، واقتتلا قتالاً شديداً، ولكنهما لم يفلحا بالظفر بهما ولم يقدرا على استخلاص الخراج منهما.

وانتهى الأمر إلى سبأ وعلي بن أبي الغارات وكل منهما يسيطر على جزء من عدن، علي على حصن الخضراء والبحر والمدينة، وسبأ، على حصن التعكر وباب البر والدملوه ومناطق أخرى متعددة من شمال اليمن.

---

(٥) غاية الأماني ص ٣١٦.
(٦) قرة ٣٠٤ ـ ٣٠٦ انظر أيضاً هدية الزمن للعبدلي ص ٥٣، وتاريخ اليمن خرزجي (مخطوط) الكفاية والأعلام ص ٨٤، وتاريخ ثغر عدن ٢/٨٦ وما بعدها.
(٧) تاريخ اليمن عمارة هامش ٥ ص ١٩١ تحقيق الأكوع.
(٨) العبر وديوان المبتدأ والخبر ابن خلدون ٤/٢١٨ ـ ٢١٩.
(٩) قرة ١/٣٠٤ ـ ٣٠٥.

الصراعات التي نشبت بين بني زريع وبني الغارات

واستطار الشقاق بين هاتين الفئتين المتناحرتين على السلطة واللتين كانتا على وفاق تام، واقتتلتا قتالاً شديداً بوادي لحج أنهك قواهما ومزّق شملهما، وكانت الدائرة على جموع بني أبي الغارات[10] ويوحي وصف الداعي[11] محمد بن سبأ للمعركة التي جرت بينهما في هذا الوادي أن آل زريع قد ظفروا بالنصر وهزموا بني أبي الغارات الذين تقهقروا والتجأوا إلى حصني المنيف والحقلة في أعالي لحج وهناك قتل علي بن أبي الغارات وبقية أعوانه.

وقد استمرت هذه الفتنة سنتين استنزفت أموالهما وأضعفت اقتصادهما.

ثم دخل الداعي سبأ عدن وتوفي فيها ودفن في حصن التعكر سنة ٥٣٢هـ[12]. ولما قدم رسول الفاطميين العبيدين الرشيد بن الزبير[13]، وقيل أحمد بن علي بن الزبير[14]، من مصر لتقليد الدعوة على ابن سبأ وجده قد مات، فقلّدها أخاه محمد بن سبأ، وكان وزيره يومئذ بلال بن جرير الحمدي، وتوفي محمد هذا وأفضت الرئاسة إلى عمران بن محمد بن سبأ الموصوف بالكرم والنجابة، وخلفه أولاده والوالي ياسر بن بلال، وفي عهدهما أجهز الأيوبيون على اليمن واستولوا على عدن ونواحيها[15].

وبما أن البحث يقتضي منا أن نلم إلمامة سريعة بأهم الجوانب التاريخية والسياسية لدولة آل زريع فمن الضروري أن نتناول بالدرس طبيعة مذهبهم في الحكم وذلك لكي تتضح معالم الصورة المراد إيصالها إلى ذهن القارىء.

طبيعة مذهب آل زريع في الحكم:

قلنا فيما تقدم أن الصليحيين دعاة المذهب الإسماعيلي الباطني والمؤيدين سياسياً للدولة الفاطمية هم الذين أزاحوا (بني معن) عن أريكة الحكم في عدن وما

---

(١٠) تاريخ المستبصر ص ١٢٣ ـ ١٢٤، وبلوغ المرام ص ٢٧ انظر أيضاً تاريخ ثغر عدن ١/٤٠ ـ ٤٢، وهدية الزمن للعبدلي ص ٥٦ ـ ٥٧، وقرة ١/٣٠٧.

(١١) قرة ١/٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(١٢) قرة ١/٣٠٩.

(١٣) نفس المصدر ص ٣١٠ انظر أيضاً السلوك الجندي مخطوط ص ١٨٦.

(١٤) غاية الأماني ص ٢٩٧.

(١٥) قرة ١/٣٠٩.

جاورها وولّوها بني زريع. وسبب اختيارهم لبني زريع ـ فيما نعلم ـ يكمن في النقطتين التاليتين وهما من النوع الاستنتاجي:

أولاً: كون الزريعيين أحد فروع الدعوة الصليحية ذات النفس الباطني الفاطمي.

ثانياً: تضحيات الزريعيين في سبيل إرساء قواعد هذه الدعوة.

وقد ظل الزريعيون أوفياء مخلصين للمذهب الإسماعيلي الفاطمي يؤدون الخراج لدولة العبيدين في مصر حتى قبيل أن تلفظ دولتهم أنفاسها الأخيرة وإن لم يكونوا على وفاق مع الزعماء الصليحيين وبخاصة السيدة الحرة[16]. وتصفهم المصادر[17] التي بين أيدينا بأنهم اسماعيلية يدعون الخلق للمذهب، ولكن هذا وحده لا يسوغ لنا القول بأنهم باطنية يذهبون مذهب العبيدين والفروع المنبثقة منه حتى نتحرى الحقيقة ونضع الأدلة والبراهين الدامغة التي ترقى إلى مراتب اليقين. فالبحث في طبيعة مذهبهم ـ إن صح هذا التعبير ـ يتطلب جهداً كبيراً وتمحيصاً دقيقاً في مظانّ مذهبهم. ومما يؤسف له أن كثيراً من هذه المصادر الإسماعيلية والسنية التي تحدثت عن طبيعة المذهب أغفلت تناول هذا الموضوع فلم تشر لا من بعيد ولا قريب إلى مذهبهم في الحكم، والنزر اليسير منها يشير إلى أنهم «إسماعلية يدعون الخلق إلى المذهب»، وتكتفي بهذه الإشارة. وليس من الظن الاعتباطي أن نعزو ذلك إلى طبيعة المذهب الباطني نفسه الذي يخفي عقائده لا على أعدائه فقط بل حتى على قسم كبير من أتباعه كما يقول برنارد لويس[18]. وقد تحدثت تلك المصادر وبإسهاب عن طبيعة المذهب الأم وعلاقته بالحركات المنبثقة عنه. ففريق من أصحاب هذه المصادر ينسب أئمة المذهب الإسماعيلي إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ويؤيد الفاطميين في دعوة انتمائهم إلى فاطمة وعلي،

(١٦) تاريخ ثغر عدن ١/٨٤ وما بعدها، انظر قرة ١/٣٠٦ والخطط المقريزية ١/٣٤٩.

(١٧) تاريخ ثغر عدن ٤٦، انظر أيضاً بلوغ المرام للعرشي ص ٢١، وكتاب الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية الطبعة الثانية محمد عبدالله عنان ص ٤٧ ـ ٤٨ قال المقريزي ١/٣٤٩ من الخطط (وكان باليمن من أهل هذا المذهب [يعني الإسماعيلي] كثير بعدن وبأفريقية).

(١٨) أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية ـ برنارد لويس قدم له الدكتور ـ خليل احمد خليل ص ٥١.

وفريق آخر ينسبهم إلى عبدالله بن ميمون القداح المجوسي الأصل الذي يدعو إلى هدم الأديان بتأويل أهدافها ونقضها، وتأويل القرآن تأويلاً باطنياً، فقد أوصى أحد زعماء المذهب أتباعه بالتشكيك في الكتب السماوية ومعطياتها وأحلّ آخر ما أبطله الإسلام من موبقات، وهي من الأمور التي تصادف هوىً ورغبة في نفوس السواد الأعظم من الناس[١٩].

كما ترى بعض المصادر الحديثة أن دولة الشيعة الإسماعيلية عامة، ودولة العبيدين خاصة، إنما قامت على المكر والحيل والخداع والكيد والأسرار المغيّبة والوسائل المحجبّة[٢٠].

أما من حيث علاقة المذهب بالحركة القرمطية ـ كحركة سياسية ـ بارزة فبعض المؤرخين[٢١] كابن رزام، يسوّون بينهما وبين مذهب الفاطميين العبيدين، ويميل بعض الباحثين كدوساسي ودوخويه ودوزي وماسينيون إلى هذا الرأي، وينفيه البعض الآخر، ويرى الأستاذ المؤرخ[٢٢] سلطان ناجي أن القرامطة طائفة من طوائف الإسماعيلية الشيعية ولكنها انسلخت عنهم واتخذت لها سبيلاً آخر.

ولكن هؤلاء المؤرخين والباحثين لم يشيروا إلى العلاقة القائمة بين الفاطميين العبيدين وبين الصليحيين وآل زريع. والشيء الذي لا مراء فيه أن آل زريع ظلّوا يدفعون الخرّاج للدولة الفاطمية حتى لفظت دولتهم الأنفاس، كما تتم المصادقة على الزعامة السلطوية من الخليفة الفاطمي نفسه. زد على ذلك أنهم سُمّوا بالدعاة لأنهم يدعون الناس إلى المذهب[٢٣]، فلعله المذهب الإسماعيلي الفاطمي. أما العلاقات التجارية فقد توثقت بشكل كبير بين القطرين[٢٤].

وعلى الجملة، فالمتبادر أن آل زريع، وبخاصة الدعاة منهم، كالداعي سبأ

---

(١٩) بلوغ المرام ص ٢١، (انظر أيضاً أصول الإسماعيلية...) والأدب والثقافة ص ٧٨ والخطط ١/٣٤٨.

(٢٠) تجديد ذكر أبي العلاء د. طه حسين ص ٥٣.

(٢١) أصول الإسماعيلية ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢٢) مجلة الحكمة عدد ٢٤ أغسطس ٧٣م (الدولة القرمطية) سلطان ناجي ص ٣٣.

(٢٣) تاريخ ثغر عدن ص ١/٤٦ وتاريخ المستبصر ص ١٢٦.

(٢٤) تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي أحمد صادق سعد، الطبعة الأولى ص ٢٩١ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

ومحمد بن سبأ وعمران بن محمد، هم فرع سياسي ينتمي إلى فواطم مصر أو يقدم لهم الولاء والجزية. ولكن كتب السلف أغفلت الحديث عن طبيعة مذهبهم وأفاضت وأسهبت في ذكر الصراعات التي نشبت بينهم وأودت بكيانهم، وما زلنا في سبيل البحث عن أيديولوجية حكمهم وعلاقتهم السياسية بالمذهب الإسماعيلي الفاطمي. فمظان البحث في هذا المضمار نادرة ندرةً محزنة. إذ أن معظم المصادر التي تناولت بالدرس المذهب الإسماعيلي هي مصادر مناوئة للفكر الإسماعيلي.

العلاقات القائمة بين بني زريع والدول الأخرى

آل نجاح في شمال الوطن:

كان النزاع على أشدّه بين الصليحيين وآل نجاح قبل ظهور آل زريع في عدن. فأولئك شيعة إسماعيلية وهؤلاء سنّة، وجرت بينهما معارك طاحنة أدت إلى مقتل عدد من زعمائهما كنجاح وابنه سعيد وعلي بن محمد الصليحي وعبدالله الصليحي وغيرهم كثير. وظل النزاع محتدماً أمداً طويلاً يثور تارة ويهدأ تارة أخرى حتى عام ٥٦٩هـ تقريباً، حين قدم الأيوبيون إلى اليمن وقضوا على كل الدول المتناحرة فيها قضاءً مبرماً. فلا مناص إذن من أن تكون علاقة ولاتهم في عدن بآل نجاح علاقة مضطربة سيئة. فقد ذكرت المصادر[٢٥] أن الأسطول الزريعي بقيادة بلال بن جرير المحمدي، شنّ حملة تأديبية على منطقة زبيد وعاث وأفسد فيها وانقطعت المواصلات بين القطرين ثلاثة أعوام. ولكن هذه المصادر لم تشر إلى الأسباب المباشرة التي دفعت آل زريع إلى شن الحملة.

ويبدو أن العلاقات التجارية بين هذين القطرين كانت مزدهرة بالرغم من توتر العلاقات السياسية بينهما. فقد أوفدت الملكة الحرة ووزيرها القائد أبو محمد سرور الفاتكي، أوفدا عمارة اليمني إلى عدن لشراء بعض البضائع[٢٦]، وكان عمارة حينها يُعد من أكابر التجار وأهل الثروة، كما يقول أبو عبدالله الحفائلي[٢٧].

---

(٢٥) النكت العصرية عمارة ص ٢٤ ـ ٢٦ انظر أيضاً عمارة اليمني د. ذو النون المصري ص ٣٨ ـ ٣٩ والأدب والثقافة ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢٦) النكت ص ٢٧.

(٢٧) نفس المصدر ص ٢٨.

الفاطميون في مصر:

في سنة ٤٤٧هـ[٢٨] كانت اليمن في قبضة الداعي علي الصليحي الذي ثار من حصن مسار وأطلق دعوته الفاطمية داعياً للعبيدين في مصر وأهاب بدعاته لدعم ومساندة الدعوة وشن حرب لا هوادة فيها ضد السلاطين والأمراء الذين بعثوا الفرقة والانقسام في اليمن، ودعا إلى توحيد الصفوف ولمّ الشعث، وكانت اليمن يومذاك مجزّأة مفككة الأوصال يحكمها عدد من السلاطين والأمراء والمشايخ كما أسلفنا.

ويرى بعض المؤرخين[٢٩] أن علي الصليحي لا يؤمن - في الأساس - بهذه الدعوة، ولكنه أراد استغلالها في دعم ومساندة سلطته في اليمن نظير الجزية أو الخراج الذي يدفعه للعبيدين. بيد أن المصادر تُجمع على أنه من كبار زعماء الإسماعيلية ولكنه يمتاز عنهم باللين والتسامح مع المذاهب الأخرى المناوئة.

هذا في حين يصفه البعض الآخر[٣٠] بالرافضي وهم يعنون بها ذا الميول الإسماعيلية الباطنية، فالرافضة[٣١] فرقة من أتباع سبأ القائل بالوهيّة عليّ، وقد سُمّوا بذلك لأنهم رفضوا رأي زيد بن علي بن الحسين في الإمتناع عن لعن أبي بكر وعمر أو التبرؤ منهما، وقيل أنهم رفضوا إمامة زيد نفسه. ويبدو أن علاقة آل زريع بالعبيدين لا تخرج عن هذا النطاق، فهم يؤدون الخراج للخلفاء الفاطميين الذين يعهدون إليهم بمهمة الدعوة في اليمن وتنصيبهم حكاماً على المنطقة وربما خلعهم أيضاً إذا اقتضت الضرورة.

كما وفد إلى اليمن مبعوثو الدولة الفاطمية من السفراء والرُّسل أمثال الرشيد بن الزبير الذي قلد الدعوة محمد بن سبأ ونظراء آخرون من اليمن ربما كان في مقدمتهم عمارة اليمني، الذي زار مكة في عهد ابن فليته ثم غادرها إلى مصر، وهناك أصبح من كبار شعراء البلاط الفاطمي حتى مقتله.

آل مهدي في اليمن:

تغلب آل مهدي على أجزاء من شمال اليمن في أواخر عهد الدولة الزريعية،

(٢٨) تاريخ اليمن عمارة ص ١١٥ والنجوم الزاهرة ٥/٥٨ - ١١٢.

(٢٩)

(٣٠) النجوم الزاهرة ٥/١١٢ نقلاً عن ابن خلّكان.

(٣١) الحاكم بأمر الله. . هامش ص ٢٨١ انظر أيضاً مرآة الجنان ١/٢٥٧ - ومعتزلة اليمن ودولة الهادي وفكرة علي محمد زيد ص ١٩.

وبالذات في عهد عمران بن محمد بن سبأ، وأرادوا بَسْط نفوذهم على الجنوب فغزوا أبين ولحج وعاثوا وأفسدوا فيهما وقتلوا كثيراً من أهلهما[٣٢] وجرت بينهم وبين عمران معركة في الجوّة انهزم فيها جيشه[٣٣] ودفع الجزية لهم. ثم حاصروا عدن فاستعان آل زريع بآل حاتم، وهم شيعة إسماعيلية، ووقعت بين الفريقين معركة أخرى في ذي عدينة (تعز)، ودارت الدائرة على آل مهدي فانهزموا[٣٤] ولكنهم تغلبوا على بعض معاقل عمران بن محمد كحصن سامع وحصن مطران وحصن يمين[٣٥].

وظل آل مهدي على حالهم تلك خمسة عشر عاماً[٣٦] كلما هزمت فئة منهم امتشقت الحسام فئة أخرى حتى استأصل الأيوبيون شأفتهم وقضوا عليهم.

وليس ثمة ما يدعو إلى شك في أن سبب العداء بين الفريقين، آل زريع وآل مهدي، هو اختلاف الأيديولوجيتين، إن جاز التعبير. فآل زريع شيعة يوالون العبيدين الفاطميين في مصر، وآل مهدي سنة حنفاء مع اختلافات جوهرية سنّها زعيمهم علي بن مهدي وأضافها إلى عقيدته في الأصول، ومنها كما يقول عمارة: (التكفير بالمعاصي والقتل بها وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة واستباحة الوطء لسباياهم واسترقاق ذراريهم وجعل دارهم دار حرب وقتل من شرب الخمر ومن سمع الغناء ومن زنا ومن تأخر عن صلاة الجماعة أو عن زيارة قبر أبيه أو مجلس وعظه. . .) وأضاف عمارة قائلاً. . . وهذه الرسوم إنما هي على العسكرية[٣٧].

إن هذه الإضافات الشاذة التي سنّها آل مهدي جعلت صاحب شذرات

---

(٣٢) هدية الزمن ص ٦٣ نقلاً عن اللطائف السنية للكبسي. . . وغاية الأماني ص ٣١٦.
(٣٣) طبقات فقهاء اليمن لابن سمرة الجعدي ـ تحقيق فؤاد سيد ص ١١٦ ـ وتاريخ ثغر عدن ١/١٢٧ ـ ١٢٨.
(٣٤) غاية الأماني ص ٣١٩ والحكمة اليمانية عدد ٢٧/١٩٧٤م ص ٩ وتاريخ ثغر عدن ٢/١٢٧ ـ ١٢٨.
(٣٥) تاريخ اليمن عمارة ص ٢٣٥.
(٣٦) مرآة الجنان ٤/٣٢٩.
(٣٧) تاريخ اليمن عمارة ص ٢٣٧.

الذهب[٣٨] يعتبرهم من دعاة الفاطميين العبيديين لشذوذ هذه الأهداف وميل الزعيم علي بن مهدي إلى الظلم والفساد. وتجدر الإشارة أن علياً هذا قدم إلى ذي جبلة في عهد الداعي محمد بن سبأ يستنجده على أهل زبيد فلم يجبه الداعي كما يقول عمارة[٣٩]. زد على ذلك رغبة آل مهدي الجامحة في الاستيلاء على اليمن...

الحياة الفكرية والثقافية في عدن في هذا العصر

من مآثر آل زريع:

لعل من المفيد قبل الخوض في الحياة الأدبية في هذا العصر، أن نستعرض المآثر العمرانية لآل زريع في عدن، وقد يكون في ذلك استطراد يخرج بنا بعيداً عن حدود الموضوع الرئيسي، لكننا على أية حال نرى ذلك من صلب الحياة الفكرية والثقافية، أو بالأحرى من معطيات هذه الحياة، وقد لا يرى القارىء الكريم في هذا العرض القصير ما يستدرعي اهتمامه وانتباهه ويشبع فضوله ورغبته، وهذا يرجع في الأساس إلى شُحِّ المصادر التي تناولت الموضوع، وسبق أن أشرنا إلى هذه الندرة المحزنة لا بالنسبة لهذا الجانب فحسب بل والجوانب الأخرى التي تُعد من صميم البحث، كالحياة الثقافية والأدبية والسياسية. فلكي نستوثق مثلاً من المعلومات الخاصة بأيديولوجية آل زريع لا بدّ لنا من دراسة أكبر عدد ممكن من المصادر الإسماعيلية والسنية كعيون الأخبار لإدريس اليماني وكتاب الصليحيون، والحركة الفاطمية وغيرها.

أما بالنسبة للحياة الأدبية فالمصادر الموجودة لم تشر إلا إلى ما كان لا مندوحة من ذكره من أدباء وشعراء البلاط الزريعي، كالعندي وأبي بكر اليافعي، فلقد أغفلت ولا شك في ذلك ذكر المغمورين من الشعراء في عدن ممن كانوا مناوئين للحكم الزريعي ذي النهج السياسي المغاير للسنة. زد على ذلك أن هذه المصادر دوّنت في شمال الوطن، وبالتالي ركزت على شعراء هذا الشطر من اليمن ممن كانت لهم صلة بالبلاط الزريعي، ولكن الأنكى من ذلك كله أن كثيراً من هذه الأشعار التي قيلت في آل زريع وحدهم قد تلاشت كما تلاشى الشعر النقيضي المعارض

(٣٨) شذرات الذهب.

(٣٩) تاريخ اليمن، انظر تاريخ اليمن لعبد الباقي بن عبدالمجيد ص ٧٢.

للدولة الزريعية والمذهب الإسماعيلي الفاطمي.

من كل ما تقدم يبدو واضحاً أن المصادر التي بين أيدينا لم تفِ بالغرض المطلوب، وقد اقتضى ذلك منا الإختصار حينما شرعنا في الكتابة وربما كان ذلك اختصاراً مُخِلاً.

وعوداً على بدء نقول: ان هذه المآثر التي نحن بصدد الإشارة إليها لا تعدو أن تكون عبارة عن مساجد ودور ليست ذات نمط معماري هندسي راقٍ على نحو ما هو معروف عن القصور والمساجد المشهورة في البلاد العربية، ومنها مسجد البصري ومؤسسة ياسر بن بلال[٤٠] ومسجد العندي ومؤسسة الشاعر المشهور أبي بكر العندي[٤١] ومنبر جامع المنارة الذي بناه عمران بن محمد بن سبأ واسمه مكتوب عليه كما يقول بامخرمه[٤٢] ويقوم هذا الجامع اليوم قبالة (استاد الشهيد الحبشي) أما مسجد البصري والعندي فلا نعرف عنهما شيئاً.

وتضيف المصادر إلى هذه المآثر دار المنظر التي تقوم على جبل حقات، وتاريخ إنشاء هذه الدار مُختلَف عليه؛ فصاحب تاريخ المستبصر يذكر أن الأيوبيين هم بُناتها، في حين ينفي بامخرمه ذلك فيقول ما فحواه أن آل زريع كانوا يسكنون المنظر قبل استيلاء الأيوبيين على عدن فلعل الأيوبيين جدّدوا هذه الدار فقط، وللعندي شاعر البلاط الزريعي قصيدة يصف فيها مجلس عمران في دار المنظر[٤٣].

ولما كانت الجبال الممتدة من الحصن الأخضر إلى جبل حقات غير مسوّرة فقد شيد آل زريع عليها سوراً ضعيفاً انهار بعد حين، فأقاموا سوراً آخر من القصب ظل على حاله تلك حتى بناه الزنجيلي والي الأيوبيين في عدن[٤٤]، وتسوير هذه السلسلة الجبلية يعدّ مأثرة من مآثرهم. والمعروف أيضاً أن آل زريع هم أول من بنى الدور الحجر[٤٥] التي كانت موادها تجلب من أبين، لأن أغلب بيوت تلك

(٤٠) تاريخ ثغر عدن ٢/٥٤ ترجمة الأبيوردي.
(٤١) هدية الزمن ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٤٢) تاريخ ثغر عدن ٢/١٨٤ ـ ١٨٥ نقلاً من الجندي. . انظر أيضاً قرة ١/٣١٩.
(٤٣) نفس المصدر ٢/٢٠.
(٤٤) ومطلعها «فلكُ مقامك والنجوم كؤوس».
(٤٥) تاريخ ثغر عدن ٢/٤٧.
(٤٦) تاريخ ثغر عدن ٢/١٥١.

الحقبة من الزمن كانت مصنوعة من الخوص والقصب.

فقهاء عدن والأدب:

كان للفقه والقراءات والقضاء رواج كبير في مدينة عدن في هذا العصر والعصور التي تليه، فقد اشتمل كتاب تاريخ ثغر عدن على مجموعة كبيرة من الفقهاء والقضاة الذين امتحنوا على تعبير المؤلف بالقضاء في عدن، ويبدو أن من ترجم لهم كانوا يشتغلون بعلوم الفقه ويفد عليهم علماء أفاضل من البلاد العربية يتزودون من علمهم ويأخذون عنهم، وطبقات فقهاء اليمن لابن سمرة الجعدي مكتظ بأخبار هؤلاء الفقهاء القضاة. وكان بعض هؤلاء الفقهاء يقرض الشعر ويجيد قرضه كأبي بكر اليافعي الذي مُحن بقضاء عدن، وأبي الربيع بن سليمان بن الفضل القاضي الذي ولي القضاء بعد أبي بكر وسنأتي على ذكر هذين الشاعرين في موضعهما. وقد اشتهر بين هؤلاء الفقهاء أبو الدر جوهر المعظمي من رجالات الدولة الزريعية ووالي حصن الدملوه من قبل الداعي محمد بن سبأ ويصفه بامخرمه فيقول (كان عاقلاً ذكياً حافظاً فقيهاً مقرئاً أجمع فقهاء عصره على تسميته بالحافظ لأنه لا يحفظ شيئاً فينساه)[47] ونجتزىء هذه الفقرات من خطبة له يقول فيها: (لما علمت أن الموت موردي، والقبر مشهدي، جعلته تنبيهاً لنفسي من الغفلة وتذكرةً لي يوم الرّحلة، لعلّه يتغمدني الله بالعفو عن قبيح ما أسْديتُه ويتجاوز عن شنيع ما جنيْتُه).

ويورد له بامخرمة في كتابه عدداً من المؤلفات الفقهية في الحديث والقراءات والوعظ[48].

كما برز القاضي أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي سالم القريضي الذي عاصر آل زريع وولّي قضاء عدن أيام الداعي محمد بن سبأ إلى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وكانت له معرفة تامة في اللغة العربية كما يقول ابن سمرة الجعدي[49] ولكنه لم يشتغل بالشعر، إذ لم تشر المصادر إلى شيء من ذلك.

---

(٤٧) تاريخ ثغر عدن ١/٤٣ ترجمة جوهر المعظمي.
(٤٨) نفس المصدر ص ٤٣.
(٤٩) طبقات فقهاء اليمن ص ٢٥٥.

البلاط الزريعي ومجالس الأدب

عصر انحطاط الأدب:

يوافق هذا العصر الذي نحن في صدد تأريخه عصور الانحطاط والتدهور الفكري والسياسي في العالم العربي، وذلك بمقتضى تقسيم هذا التاريخ الأدبي وفقاً لانقسام التاريخ السياسي نفسه. فقد تضعضعت في هذا العصر الخلافة العباسية وحدثت في أواخره عدة انقلابات أدت فيما بعد إلى ظهور السلاجقة والمغول والصليبيين الذين عبثوا بالعالم العربي أيّما عبث، فأحرقوا المكتبات وقتلوا الأهلين وفسدت فيه الأحوال وانتشرت الفتن والحروب. وبديهي أن ينعكس ذلك على الأدب والثقافة. فبالرغم من بروز معاجم وموسوعات ضخمة في هذا العصر، إلا أنّ الأدب، شعره ونثره، قد ضعف وعبثت به الصناعة اللفظية والتفنن في المحسّنات البديعية، وانصرف الشعراء إلى الشعر الصوفي ومدح النبي وآله، وبثوا شكواهم في قوالب شعرية مثقلة بالبديع والجناس، فمنهم من يئنّ تحت وطأة الفقر والعوز، ومنهم من ينصرف إلى وصف الآنية والفواكه، ومنهم من يعارض السّلف من شعراء العصر الأموي والعباسي فيغرق في الألوان البيانيّة والبديعيّة فتطغى ألفاظه على معانيه، وقلما تجد شعراً متين السبك قوي العاطفة كشعر عهود القوة والازدهار.

حال الأدب في عدن:

من خلال دراسة بعض النماذج الشعرية والنثرية المنتشرة في ثنايا الكتب والمخطوطات اليمنية تبين لنا أن حالة الأدب في عدن كحالته في البلاد العربية التي تعيش تحت وطأة الجور والعسف وترسف في قيود الذل والاستعباد والتفكك، شعرٌ يتأرجح بين الضعف والقوة والركاكة والمتانة، وتغلب عليه الصناعة اللفظية والصور البيانية الممجوجة، وإن لم تكن بالقدر الذي نجده في شعر الانحطاط في مصر والبلاد العربية الأخرى. ونثرٌ يحذو حذو نثر القاضي الفاضل ـ شيخ المترسّلين في ذلك العصر أو يتأثّره، ويحاول تقليده كنثر أبي بكر العندي، وأقلّ منه سبكاً ومتانة كنثر أبي الدر جوهر المعظمي الذي أشرنا إليه فيما تقدم.

وقد أطلعنا على نماذج شعرية متناثرة في كتب الأدب والتاريخ لشعراء لمعوا في عدن كأبي بكر العندي وأبي بكر اليافعي وسنقف عندهما وقفة قصيرة فيما بعد،

وآخرين وفدوا عليها مادحين ملوكها بني زريع من شمال الوطن، كالقاضي يحيى بن أحمد بن يحيى، ويحيى بن محمد علي الحسيني، وعبدالله بن علي الصنعاني، وعمارة اليمني، وسالم بن عمر التغلبي، والمعافري، والخباز، وصفي الدولة أحمد بن علي الحقلي، وعبدالله بن مرزوق، وأبي الربيع سليمان بن الفضل وغيرهم. أو من مصر الفاطمية كابن قلاقس، والرشيد بن الزبير. ولا تخرج هذه النماذج عن إطار المديح والإطراء إلا فيما ندر، ففيها المعارضات والاقتباسات والتكلف الممجوج.

وكان بعض هؤلاء الشعراء قضاةً فقهاء كما أسلفنا، يشتغلون أساساً بالفقه والقضاء لما للفقه والشريعة والقضاء من رواج في تلك الفترة. وقد لمع من هؤلاء أبو بكر اليافعي وسليمان بن الفضل. ولعل هناك شعراء آخرين كانوا في عدن ولم يذع شعرهم، ولم يردوا في هذه المصادر التي بين أيدينا والتي تؤرخ للمشهورين ممن كانت لهم علاقة وصلة بحكام آل زريع..

وعلى الجملة فالشعر في هذه الفترة (هو تكرار غير متجدد)[٥٠]..

مجالس الأدب في البلاط الزريعي

كانت تقام مجالس أدبية في دار المنظر ـ وهي بمثابة المقر الرئيسي فيما يبدو لحكام عدن وساستها وضيوفها الكبار، يحضرها لفيف من الشعراء اللامعين كالعندي وعمارة واليافعي، وفيها تعلم عمارة قرض الشعر فمدح الداعي محمد بن سبأ فأجازه وأكرمه، وذاع صيت العندي وزير الدولة الزريعية وبلغ الآفاق وغدا شاعر البلاط الزريعي وذا الكلمة المسموعة والنافذة في الدولة. وكان الدُّعاة يجزلون عطاياهم وهباتهم على الشعراء، فقد روي[٥١] أن عمران قدم ابنه أبا السعود هبة للشاعر العندي نظير قصيدة مدحه بها ثمّ أحضر الصبي هدية نفيسة وقدمها للشاعر، وتصف المصادر[٥٢] عمران هذا بالنجابة والكرم والجود، كما تصف جده بأكثر من ذلك؛ فلقد أنفق آلافاً مؤلفة من الدنانير في يوم واحد لأحد مستجديه[٥٣]،

(٥٠) رحلة في الشعر اليمني الردوني ص ٤١ عهد الاجترار.
(٥١) قرة ١/٣١٧.
(٥٢) نفس المصدر ١/٣١٩.
(٥٣) نفس المصدر ١/٣٠٨.

كما يفد شعراء الشمال إلى هذه الدار ليمتدحوا آل زريع وتدور بينهم المعارضات والمطارحات الأدبية ويغدق عليهم هؤلاء العطايا والهبات الجزيلة، وسنأتي على ذكر أبرز هؤلاء الشعراء بعد قليل. وقبل أن نفضي إلى استعراض تراجمهم نودّ أن نقول أن عدداً من المؤرخين أغفلوا الكثير من هذا الشعر الذي قيل في آل زريع، فلقد اختفى شعر عمارة الذي قاله فيهم من ديوانه. والأنكى من ذلك أننا لم نعثر على دواوين هؤلاء الشعراء كالعندي واليافعي وعمارة في مكتباتنا، وقمنا بجمع مادته اليسيرة من المطبوعات والمخطوطات الموجودة في مكتبة الفقيد باذيب وهي يسيرة جداً، زد على ذلك اننا لم نحصل على المصادر المهمة كخريدة القصر.

وعلى أية حال ربما سنحت لنا فرصة أخرى للوقوف على هذه المصادر وإعادة النظر فيما كتبناه إذا عَنَّ جديد أو استجدّ قديم.

شعراء الدولة الزريعية

شعراء اليمن:

(١) شعراء عدن:

(أ) أبو بكر بن أحمد العندي

مولده وطفولته:

هو فخر الدين أبو العتيق أبو بكر بن أحمد العندي[٥٤]، وقيل العبدي[٥٥] والعيدي[٥٦] والأرجح العندي نسبة إلى بلد الأعنود من ضواحي أبين. والمصادر تجمع على أنه أبيني المولد، فلعلّه ولد في العند أو الأعنود.

وكان أبوه أحمد العندي من أعيان أبين ينعته عمارة[٥٧] بالأديب السّيد الصالح الذي يهتدي الناس بحسن أفعاله، فربما كان يشتغل بالأدب ويتعاطى القريض، غير أن هذه المصادر لا تشير إلى شيء من ذلك، ولا نعرف إلا النزر اليسير عن نشأة

(٥٤) التحفة للأهدل نقلاً عن هدية الزمن ص ٧٢ ـ ٧٣، وقرة ١/٣١٦ والأدب والثقافة ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٥٥) طبقات فقهاء اليمن ص ١٦٨ ـ ١٦٩، والسلوك في طبقات العلماء والملوك ص ١٨٦.

(٥٦) تاريخ ثغر عدن ص ١٨٣ وما بعدها.

(٥٧) تاريخ اليمن عمارة ص ٣٢٧.

وتربية ابنه أبي بكر قبل نزوله إلى عدن، إذ يذكر عمارة[٥٨] أن مؤدِّبه كان يتوسّم فيه الخير لحبّه الجمّ للعلم والتحصيل فهو لا يفارق الكتاب والمكتب إذا حانت الفسحة للصبيان.

نزوله إلى عدن:

وانحدر شاعرنا[٥٩] إلى عدن في عهد واليها بلال بن جرير المحمدي يلتمس العلم والتحصيل فيها، وهناك درس أصول الفقه والأدب والحساب واشتغل بالنظم والنثر، وذاع صيته حتى بلغ أسماع بلال بن جرير، وكان كاتبه[٦٠] محمد بن عربي قد توفي في تلك الفترة فخلا ديوان الإنشاء من كاتب يحرر الرسائل وظفر شاعرنا بالوظيفة وكانت سبيله إلى الشهرة والجاه والمال الوفير.

وغدا بعد حين شاعر البلاط الزريعي ووزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء فيها[٦١]، يجلّه ويكبره حكام عدن، ويثني عليه كتاب مصر ويحترمه الضيوف والزوار القادمون على البلاط من الشعراء والعلماء والسفراء، وكان يتصدر حلقات الأدب التي تقام في دار المنظر والتي يحضرها عدد من مشاهير الشعراء ورجالات الحكم، وتعقد فيها المناظرات والمطارحات الأدبية وتلقى قصائد المديح والإطراء التي صقلت موهبة الشاعر وأنضجت نتاجه الأدبي وبلغت به مبلغاً كبيراً في نفوس ممدوحيه من دعاة آل زريع.

مدائحه في آل زريع:

قلنا فيما تقدم أن صاحبنا تألّق نجمه في هذه الدولة وغدا شاعرها المجيد الذي لا يضاهيه شاعر في تلك الحقبة في عدن، وقصائده المبثوثة والمنتشرة في ثنايا الكتب تنمّ عن شاعرية سخّرها صاحبها لمدح حكام عدن بدءاً بمحمد بن سبأ وانتهاءً بعمران بن محمد الذي أكثر من مدحه، وأغلب تلك القصائد مقصورة على فن المديح حاشا قصيدة «حيّاك يا عدن الحَيَاء» التي لا تخلو هي الأخرى من مدح

(٥٨) نفس المصدر، انظر أيضاً ترجمة العندي في الحكمة العدد الرابع والعشرون السنة الثالثة أغسطس ٧٣م محمد سعيد جرادة.
(٥٩) هدية الزمن ص ٧٣.
(٦٠) تاريخ اليمن عمارة ص ٣٢٧.
(٦١) نفس المصدر ص ٣٢٦.

أحد الدعاة. وله في الداعي عمران بالذات مدائح جمّة يمدح فيها شخصه الكريم أو يصف فيها مجلسه الأنيق. وكان الداعي عمران جواداً كريماً يغدق عليه الهبات حتى قيل إنه سلّم إليه ولده أبا السعود بن عمران كما أشرنا سلفاً، نظير مدحه بقصيدة اقترحها عليه الداعي ووصف فيها مجلسه، ولعلها تلك التي مطلعها:

فَلَكٌ مقامُك والنجومُ كؤوسُ بسعوده التثليث والتسديسُ[٦٢]

وتكلُّف النظم ظاهرٌ فيها لا سيما في قوافيها القلقة المتعملة كما سترى.

وأخرى يبدؤها بقوله:

عاد الهوى في فؤادي مثلما بدأ لما تعرضتُ من أهل الحمى نبأ[٦٣]

وثالثة مطلعها:

عمران أكرم من جاء الزمانُ به فرداً وأشرف من في حجرةٍ نشأ

ورابعة مطلعها:

ملك تفرّع في المعالي منزلاً بُنيت قواعده على كيوانه

ومدائح أخرى مثبوتة في المصادر التي وقفنا عليها[٦٤].

أخلاقه:

يصفه عمارة بالعقل الرصين والدين الحصين والسؤدد العريض والكرم المستفيض والتواضع الجم. وقد أفاضت المصادر الأخرى التي ترجمت له في مدحه وأسهبت في إطرائه فوسمته بالكرم والجود وحسن العشرة والضيافة[٦٥]، لأنه كان يبذل جهده في إكرام الزوّار والضيوف القادمين على الدولة الزريعية في عدن، وقد أكرم عمارة اليمني حينما وفد إلى عدن للمتاجرة وحسّن له قرض الشعر[٦٦].

وفاته:

أصيب شاعرنا في آخر أيامه بكفاف البصر وقضى نحبه سنة ٥٨٠هـ. تقريباً

---

(٦٢) قرة ١/٣١٦ ـ ٣١٧، انظر أيضاً العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك (مخطوط) خزرجي ٥٨.

(٦٣) تاريخ اليمن عمارة ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ والأدب والثقافة.. ص ١٥٨.

(٦٤) قره ١/٣١٧ ـ ٣١٨ وتاريخ اليمن خزرجي (مخطوط) ص ٥٠.

(٦٥) تاريخ اليمن عمارة ص ٣٢٦.

(٦٦) هدية الزمن ص ٧٢ ـ ٧٣ وتاريخ ثغر عدن ص ١٨٣ وما بعدها.

بعد مضي دولة آل زريع بإحدى عشرة سنة[٦٧]، وقال فيه عبدالله بن مرزوق وقد كُفَّ بصره:

يا مدره اليمن الذي بمقاله ... بين الورى قام الزمان خطيبا
فغدا قدامة وهو غير مقدم ... وفصيح وائل بالمقال مصيبا

ومدح خلال هذه المرحلة من عمره ملوك بني أيوب الذين استولوا على عدن سنة ٥٦٩هـ واتصل بهم، وربما صار شاعرهم الذي ينافح عنهم ويذود عن حياضهم، ورئيس ديوان الإنشاء في بلاطهم الذي يحرر رسائلهم ويرد على مكاتباتهم كما كان يفعل في عهد بني زريع، وفعل صنيعه هذا القاضي الفاضل الذي تحول من خدمة الفاطميين إلى خدمة الأيوبيين[٦٨].

نماذج من شعره:

قال من قصيدة طويلة يمدح الداعي عمران بن محمد بن سبأ ويصف مجلسه في دار المنظر:

فَلَكٌ مقامك والنجوم كؤوس ... بسعوده التثليث والتسديسُ
والبدرُ وجهُك طالعاً في دَسْته ... لا البدرُ أحلى وجهه الحنديسُ
يا داعي الدين الذي أنسى العُلا ... في جنب مغنىً منه فهو أنيسُ
يا واحد العرب الذي يسمو بها ... يوم المفاخر مجده القدموسُ
يا من تطابقَ فعلهُ ومقامهُ ... فسما به التطبيق والتجنيسُ[٦٩]

وقال يمدحه أيضاً:

حيّاكِ يا عدنُ الحَيَا حيّاك ... وجرى رِضابُ الماء فوق لَمَاكِ
وافترَّ ثغر الروض فيهُ مضاجكاً ... بالبشر رونَق ثغرِكِ الضحّاكِ
ووَشتْ حدائقُه عليكِ مطارِفاً ... فاختال في جراتها عطفاكِ
فلقد خُصصت بفضل سرٍّ أصبحت ... فيه القلوب وهنّ من أسْراكِ
وعلامَ أستسقي الحَيَا لكِ بعدما ... ضمنَ المكرم بالنّدى سُقياكِ

(٦٧) هدية الزمن ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٦٨) الأدب والثقافة ص ١٤٧ ـ ١٥٦.
(٦٩) هدية الزمن ٥٩.

وهَمَتْ مكارمه عليك فصافحتْ عن كفه مغنى الغنى مغناكِ
وتأرجحت ريّاكِ مسكاً عندما عبقت بريّا ذكره رياكِ

إلى قوله:

والجود مبتسم الثغور ببذله أبداً وبيتُ المال منه شَاكِ
من دوحة الشرف الزريعيّ الذي رسخت بأعلى في المفاخر زاكي[٧٠]

ومن مدائحه فيه:

ذكر العذيب ومايلات قبابه وقف الفؤاد على أليم عذابه
لله أيام العذيب وإن ثنت قلب المعنّى المستهام لما به
وسقى ندا كرم المكرم ملتقى عقدات أجرعه ووشم هضابه
ملك أفاض على الزمان بهاؤه فأعاده في عنفوان شبابه
ملك يشف عليك نور كماله فيكاد يلحظ من وراء حجابه[٧١]

وله في المديح النبوي وذكر الديار المقدسة قصيدة نجتزىء منها هذه الأبيات:

لي بالحجاز غرام لست أدفعه ينقاد قلبي له طوعاً ويتبعه
يهزني البرق مكياً تبسُّمه إذا تراءى حجازياً تطلُّعه
وفي ثرى يثرب غايات كلّ هوى يحل عن موقع الأشراف موقعه
أفق الشريعة والإسلام طالعه شموسه مستجاس النصر منبعه
حيث النبوة مضروبٌ سرادقها والفضل شامخ طود الفضل أفرعه
وحيث كان طريق الوحي منضحاً بين السماء وبين الأرض مهيعه
وخاتم الأنبياء المصطفى شرفاً محمد باهر الأشراف مضجعه
صلّى الإله عليه ما تكرر بالصلو ات فرض مُصَلٍّ أو تطوعه[٧٢]

ومن نثره نورد هذه المقتطفات من رسالة كتبها على لسان توران شاه يتشوّق فيها إلى مصر ويتأثر فيها طريقة القاضي الفاضل:

(٧٠) هدية الزمن ص ٥٩، وتاريخ اليمن عمارة ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.
(٧١) تاريخ اليمن عمارة ص ٣٢٤ ـ ٣٣٥.
(٧٢) نفس المصدر ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ والأدب والثقافة ص ١٥٧.

ولما ترامت به مفاوز الطرق، وفقد ما كان يستضيء به من أنوار ذلك الأفق، وحاول استدامة ما كان يتخلق به من ذلك الخلق، وجد الحال ممن قبله قد استحالت، وفطرة الحيران بلبّه قد استمالت، ولم يلبث أن باح سراً فؤاده الملتاح، وهزت نشوة الشوق هزّة نشوان الراح، وجعل الوجد يهفو بثباته ووقاره، والحنين يتغنى شجوه كما يتغنى الحمام في أشجاره، والشوق يصور له ما لم يكن مصوراً لديه من سامي ذلك المكان[٧٣].

كلمة عامة في شعره ونثره:

يتأرجح شعره ـ الذي بين أيدينا ـ بين جودة السبك وضعف المبنى أما معانيه فلا جدّة فيها البتّة، ولسنا نغلو إن قلنا أنه يجترّ المعاني القديمة ويصوغها في قوالب جديدة هي أقرب إلى الركاكة منها إلى المتانة والجودة.

وغالب شعره في المدح والإطراء الذي يضعه في عداد شعراء التكسُّب بالمديح، ولكن تعوزه أساليبهم المبتكرة ولغتهم السلسة العذبة، كما يقل حظه من جماليات الشعر.

وقد تستشف في شعره ولعاً بالمعارضات والصور البيانية المتعمَّلة فقصيدته (فلكُ مقامك) سالفة الذكر يظهر فيها هذا التكلف والتعمُّل في المبنى والمعنى، واختيار الألفاظ الوحشية المستقاة من الموروث اللغوي كالحنديس والقدموس وغيرها كثير.

أما نثره فيحذو حذو الطريقة الفاضلية.

(ب) أبو بكر اليافعي

هو القاضي أبو بكر بن محمد بن عبدالله بن إبراهيم اليافعي، ولد سنة تسعين وأربعمائة في الجند[٧٤] ونشأ في بيئة علمية، فقد كان أبوه يقرض الشعر وأخواله (بنو عبد العليم) يشتغلون بالفقه، وقد أخذ عنهم ما تيسر له منه، ثم تتلمذ في العلم ذاته على يد علامة اليمن زيد بن علي اليفاعي، وأخذ الأدب عن النعماني

(٧٣) الأدب والثقافة ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٧٤) طبقات فقهاء اليمن ص ١٦٥.

والرشيد بن الزبير، فصار أديباً شاعراً مفلقاً مترسلاً فصيحاً وكانت لديه معرفة في علم الكلام واللغة العربية[٧٦].

اتصل بملوك اليمن كالمنصور بن المفضل[٧٧] والداعي محمد بن سبأ[٧٨] اللذين ولياه قضاء ذي جبلة وقضاء عدن[٧٩]، وكان يوسم حينها بقاضي قضاة اليمن لفضله الكبير وعلمه الغزير في الفقه وعلوم الشريعة. وزاده ذيوعاً وشهرةً أنه كان خطيباً مِصْقعاً يرتجل في ساعته، وفقيهاً مجيداً ذا بديهة وحصافة ورجاحة عقل[٨٠]، واستقر في عدن أيام الداعي محمد بن سبأ. وتوفي في الجند سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة مبطوناً[٨١]. وقيل سنة ستٍ وأربعين وخمسمائة[٨٢].

شعره:

ترك ديواناً في مجلدين ـ لم نقف عليه ـ أكثره كما يقول المؤرخون في مدح الملك المنصور والداعي محمد بن سبأ والمفضل بن أبي البركات، ولم ترو المصادر التي بين أيدينا إلا النزر اليسير الذي لا يشفي الغليل.

قال يصف هذا الشعر:

شعرٌ إذا أنشدته في مجلس ... فكأنني جمّرتُهُ بالعود[٨٣]

ومن جميل شعره القصيدة التي قالها لما ودّع أصحابه من بلده يَفْرس المعروفة: بالمعافر، فقال:

ما أنت بعد النّوى صانع ... فقلت لا أقدر أن أصنعا

ما يصنع المعنّى إذا ... فارق إلفاً غير أن يجزعا

(٧٥) تاريخ اليمن عمارة ص ٢٩٤ والطبقات ص ١٦٦.
(٧٦) السلوك في طبقات العلماء والملوك الجندي (مخطوط) ص ١٨٩ وتاريخ اليمن (مخطوط) الخزرجي ص ٣٧.
(٧٧) تاريخ اليمن عمارة حاشية الأكوع ص ٢٩٤ وما بعدها.
(٧٨) الطبقات ص ١٦٦ (قال عبدالله الحبشي أن أبا بكر اليافعي ولي الوزارة للدولة الزريعية) انظر مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ص ٣١٦.
(٧٩) تاريخ اليمن عمارة ص ٢٩٤ وما بعدها.
(٨٠) تاريخ ثغر عدن ٢/٩٦ وما بعدها.
(٨١) الطبقات ص ١٦٦.
(٨٢) تاريخ اليمن عمارة ٢٩٤.

فارقتكم يا ساكني بفرس ... ورحت والقلبُ بكم مولعا
ناديتُ صبري يوم فارقتكم ... أجدّ للبين وقد ازمعا
يا صبر عد يا صبر عد قال لا ... لبيك لا لبيك يا من دعا
والله لا أرجع يا غادراً ... في المسير بالأحباب أو ترجعا
ولي فؤاد منذ فارقتكم ... يمسي كئيباً مؤلماً موجعا
ونفسُ صبٍّ شهدت أنه ... ما نقض العهدَ ولا ضيّعا
ومقلة مهما تذكّرتكم ... تذرف دمعاً أربعاً أربعا
وليس لي من حيلةٍ كلّما ... حنّت بي الأشواق إلاّ الدُّعا
أسألُ من ألّف ما بيننا ... وقدّر الفرقةَ، أن يجمعا

وعابه قومُه على قول الشعر لأنه لا يليق بالفقيه فقال[٨٠]:

كم حاسدٍ لي في الأنام وغابطٍ ... على منطقي إذ كان منطقه رخوى
يعيّرني بالشعر قومٌ وبعضهم ... يوبخني والكل يخبط في عشوى
أرادوا به عيبي وهل هو نافعي ... إذا ما جمعت الشعر والفقه والنحوى[٨١]

(ج) سليمان بن الفضل:

أبو الربيع سليمان بن الفضل[٨٢]، أحد القضاة المشهورين في اليمن. ولّي قضاء عدن بعد وفاة القاضي أبي بكر اليافعي المتوفّى سنة ٥٥٢هـ. وقد أثنى عليه عمارة فقال: (هو شيخ اللغة وصدر الشريعة وجمال الخطباء وتاج الأدباء)[٨٣].

ومن شعره الوجداني قوله:

شئتم بالوصال ترك الوصال ... واعتمدتم قطيعتي وملالي
واستعضتم من التداني بُعاداً ... وصدوداً يزيد في بلبالي
ليس من شيمة الوفاء أن تلجّوا ... في التجني فتشمتوا عذالي[٨٤]

---

(٨٣) تاريخ اليمن عمارة هامش ٢٩٦ وما بعدها.
(٨٤) نفس المصدر ص ٢٩٥ وما بعدها.
(٨٥) وفي تاريخ عمارة ورد الاسم (المفضل) ص ٣٢٣.
(٨٦) تاريخ ثغر عدن ٢/٩٦ وما بعدها.
(٨٧) نفس المصدر ص ٩٦.

وقال في الفخر والمدح:

أصبحتُ لا أرهبُ الأيام والنُّوبا ... لأنني جار منصور وجار سَبَا
فإن سطوتُ على الأيام مقتدراً ... أو ارتقيتُ إلى الشعرا فلا عجَبَا
فقل لمن رام كيدي أو معاندتي ... أقصِرْ ففي تعبٍ مَنْ عاندَ الشُّهبا[٨٨]

شعراء الشمال:

(أ) الشاعر والمؤرخ نجم الدين عمارة بن علي اليمني:

نحن أمام شاعر ومؤرخ فذٍ جدير بأن نقف أمامه وقفة طويلة ونتتبع مراحل حياته، منذ نشأته وحتى وفاته. فلعله الشاعر الوحيد الذي حظي باهتمام مؤرخي عصره فترجموا له وأفاضوا في ترجمته، وهو المعاصر لأبي بكر اليافعي وسليمان بن الفضل ويحيى بن أحمد بن يحيى الذين ظفروا ببعض اهتمام هؤلاء المؤرخين، ولكنهم أغفلوا الكثير من مناحي حياتهم فجاءت تراجمهم مختصرة اختصاراً مُخِلاً لا تشفي غليل الباحث مهما توخى وتحرى وأكثر من بحثه وتمحيصه، زد على ذلك أن المصادر جميعها تقريباً متفقة في ترجمتها وكأنها استقت من مصدر واحد.

وليس ثمّة ما يدعو إلى الشك في أن هذا الذيوع الذي حظي به عمارة وحده مرجعه الأساسي اشتغاله بالتاريخ والأدب وشهرته في الفقه وعلوم الدين، ثم اتصاله بالبلاط العبيدي الفاطمي ومكوثه في مصر واحتكاكه بالعلماء ورجالات الفكر. فقد ذاع صيت كتابه (المفيد) الذي سماه مفيد عمارة احترازاً من مفيد جياش النجاحي كما يقول الأكوع[٨٩]، ذاع صيته في مصر وبلغ الآفاق وعرف الناس ما كانوا يجهلون من تاريخ اليمن والدول المتعاقبة عليها، واستندت إليه مختلف المصادر المتأخرة اليمنية وغير اليمنية.

مولده ونشأته العلمية في زبيد:

والمجمع عليه أنه ولد سنة عشر[٩٠] أو خمس عشرة[٩١] وخمسمائة في تهامة

(٨٨) تاريخ اليمن عمارة ص ٣٢٣.
(٨٩) نفس المصدر المقدمة ص ١٤ ـ ١٥ تاريخ ثغر عدن ٢/ ٥٦ وما بعدها.
(٩٠) نفس المصدر ٢/ ١٦٥ وما بعدها.
(٩١) تاريخ اليمن عمارة مقدمة الأكوع ص ٢٤.

اليمن في قرية يقال لها مرطان من وادي وساع[٩٢] ولكن الأكوع وحده محقق كتاب المفيد يرى غير ذلك إذ يقول إن ولادته في قرية الزرائب[٩٣].

ولم تُشِر المصادر التي بين أيدينا إلى شيء من معالم حياته في المرحلة الأولى التي قضاها في مرطان، فلعلّه أدخل إلى الكتّاب، وحفظ القرآن الكريم وتعلّم مبادىء القراءة والحساب كما هو الحال في كل القرى التي لا عهد لها بدور العلم والمدارس الحديثة، فهذه المصادر سرعان ما تدفع به إلى زبيد التي تصفها بأنها (ربّة العرفان) ومطمح أنظار العلماء والمتعلمين[٩٤] في ذلك الوقت، وهناك تعلم عمارة الفقه الشافعي على يد الفقيه أبي محمد بن أبي القاسم الابار[٩٥]، وقرأ النحو على نصرالله بن سالم الحضرمي[٩٦]، ثم تألق نجمه في زبيد فاشتغل بالفقه في بعض مدارسها[٩٧] وأصبح من الفقهاء النابهين والبارعين في الفقه وعلوم العربية، وشرع في ترويض قريحته على قرض الشعر، فقد قال في «النكت العصرية» ما فحواه انه لما شخص والده واخوته إلى زبيد لزيارته أنشدهم شيئاً من هذا الشعر فاستحسنوه واستحلفوه أن لا يهجو مسلماً قط[٩٨]وهذا يعني أنه مارس الشعر في عهد التلمذة في زبيد وزاده احتكاكه بالبلاط الزريعي في عدن ثم العبيدي في مصر حنكة وبراعة في النظم حتى غدا من روّاد الشعر في تلك الحقبة الزمنية.

علاقته بآل نجاح:

وكانت زبيد في ذلك العهد مقر الحكم النجاحي، ويتولى مقاليد الحكم فيها الوزير القائد أبو محمد بن سرور الفاتكي والملكة الحرة أم فاتك. وكانت عمارة بملوك هذه المدينة علاقة حسنة، حيث يذكر في كتابه النكت أنه صحب الملكة الحرة أم فاتك إلى الحج وظفر بمعرفة وزيرها أبي محمد الفاتكي وكسب مالاً جزيلاً[٩٩]، ولما توترت العلاقات السياسية بين حكّام هذه المدينة وبين حكام

(٩٢) وفيات الأعيان ٣/٤٣١ وما بعدها انظر أيضاً النكت ص ٧.
(٩٣) تاريخ اليمن المقدمة ص ٢٤.
(٩٤) تاريخ اليمن المقدمة ص ٢٥.
(٩٥) تاريخ اليمن المقدمة ص ٢٦.
(٩٦) نفس المصدر ص ٢٦.
(٩٧) الوفيات ٣/٤٣١ وما بعدها.
(٩٨) النكت ص ٢٣.
(٩٩) النكت ٢٤ ـ ٢٦ انظر الأدب والثقافة ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

عدن آل زريع نتيجة الحملة الزريعية التي قادها بلال بن جرير المحمدي على زبيد، انقطعت المواصلات بين القطرين لمدة ثلاث سنوات وأدت بالتالي إلى انقطاع العلاقات التجارية بينهما، فأوفد النجاحيّون عمارة إلى عدن كي يبيع بعض البضائع ويشتري أخرى، فانحدر إليها واتصل بآل زريع وأدباء البلاط الزريعي وأثمر اتصاله وآتى أكله ـ كما سترى.

علاقته بآل زريع في عدن:

وكان منه أن اتصل بوزير الدولة الزريعية وشاعرها المجيد (العندي) الذي بسط عليه جناح رعايته، فأكرم وفادته وقدّمه إلى ملوك عدن واقترح عليه أن يمتدح الملك محمد بن سبأ، وكانت بضاعته في الشعر كاسدة فنظم العندي قصيدة وتولى إنشادها على لسان عمارة في دار المنظر، هنّأ بها الداعي بزواجه من ابنة وزيره بلال بن جرير[١٠٠]، وكانت حياته في عدن في صحبة هؤلاء الملوك من أخصب أيامه في اليمن، فقد كان يرتاد المجالس الأدبية والحلقات الفكرية[١٠١]، التي تقام في دار المنظر ويتصل بالعلماء والأدباء والشعراء طوراً ويشتغل بالتجارة وطلب العيش طوراً آخر، وكانت له حظوة عندهم.

استمع إلى محمد بن سبأ يرحّب به أجلّ الترحيب حين قدم عدن فيقول:

مرحباً قدومك بالسّعد ... فقد أشرقت بك الآفاق
لو فرشنا الأحداق حتى تطأهنّ ... لقلّتْ في حقك الأحداق

والظاهر أن هذين البيتين من نظم عمارة نفسه[١٠٢].

وعلى أية حال فقد آتى هذا الاتصال أُكله وأثمر إثماراً كبيراً فانطلقت شاعريته فـ ـ ملوك عدن، وهو الذي كان يقرض الشعر أو يروّض نفسه على قرضه،

---

(١٠٠) تاريخ ثغر عدن ٢/١٦٥ وما بعدها انظر أيضاً عمارة اليمني/ ذو النون المصري ص ٣٨ ـ ٣٩ والأدب والثقافة ص ١٣٩.

(١٠١) نفس المصدر ص ١٢٦ وعمارة اليمني ص ٣٩.

(١٠٢) النكت ص ٢٩ ـ ٣٠، قال في النكت (ص ٣٠): «وكان هذان البيتان ممّا حُفظا عن جارية كنت أهديتها إليه واتفق أن الرقعة وصلت مفتوحة بيد غلام جاهل».

ولكن مع الأسف الشديد يخلو ديوانه الذي لم نقف عليه خلواً تاماً من هذه المدائح كما يقول المؤرخون، فلعلّ آل زريع الشيعيين هم الذين أغفلوا هذا الشعر أو حذفوه من الديوان، كما أن كتابيه اللّذيْن بين أيدينا، «النكت» و«المفيد» لم يُشيرا إلى شيء من ذلك، وقد نبّه الأكوع في تحقيقه للكتاب الأخير إلى اختلاف نُسْخ الكتاب، وعلى سبيل المثال نذكر ترجمة سليمان بن الفضل التي أوردها عمارة في كتابه المذكور مكتملة في بعض النسخ فأوجزها بعض النُساخ (ربما) في النسخة[١٠٣] التي بين أيدينا والتي حققها الأكوع وعلّق عليها، ولا نعرف الأسباب التي دعتهم إلى مثل هذا الصنيع.

سفارته في مكة:

ولما استطار الشّقاق بينه وبين فقهاء زبيد الذين أوغروا صدور حكامها ضده، توجه إلى مكة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة[١٠٤] ويظهر أنه أصبح بعد ذلك سفيراً لأميرها قاسم بن هاشم فليته، فقد بعثه هذا الأمير إلى مصر في عهد خليفتها الفائز سنة ٥٥٠هـ[١٠٥] (بسبب اختلاف طرأ بينه وبين حكامها أدى إلى تدهور العلاقات السياسية والاقتصادية بين البلدين)[١٠٦].

عمارة شاعر البلاط العبيدي الفاطمي في مصر:

وفي نفس السنة أيضاً ٥٥٠هـ، عاد إلى مصر في عهد العاضد بالله واستقرّ به المقام فيها يلتمس الشهرة والعلم وخفض العيش وهدوء البال. فأما الشهرة فقد ظفر بها باتصاله برجالات الحكم، كالفائز وصالح بن زريك والكامل بن شاور وبعلماء مصر وأدبائها كالقاضي الفاضل، وحظي بالرعاية وحسن الوفادة وفيض العطاء، فجادت قريحته بالمدائح الغرّاء التي اكتظ بها ديوانه وبالمصنفات التاريخية كالمفيد والنكت. أما خفض العيش وهدوء البال فلم يظفر بهما ـ وإن تمتع بقسط منهما في مطلع حياته بمصر فقد قتل شنقاً لأسباب سنأتي على ذكرها بعد قليل. ولعل أولى مدائحه تلك التي يبدؤها بقوله:

---

(١٠٣) تاريخ اليمن عمارة الطبعة الثانية ١٩٧٦م.

(١٠٤) نفس المصدر ص ٢٩.

(١٠٥) الحاكم بأمر الله ص ٣٦٨ والوفيات ٤١٢/٣، وتاريخ ثغر عدن ص ١٦٥.

(١٠٦) الحكمة عدد ٤٤ أول اكتوبر ٧٥م مقال إبراهيم المفحفي ص ٧٦.

الحمـد للعيش بعـد العـزم والهمـم حمـداً يقـوم بمـا أولت من النِّعم

التي أنشدها الخليفة الفائز ووزيره صالح بن زريك فأجزلا عليه العطاء[١٠٧] وبسطا له يد العون والمساعدة، وانتهى به ذلك إلى ولوج البلاط الفاطمي فغدا شاعره المجيد الذي يصول ويجول في رحابه، ويمدح ملوكه وحكامه فينعم بالرضا وحسن الشمائل حيناً ويشقى بالندم وسوء ا مشرة طوراً آخر، فقد طابت أيامه في كنف الفائز وصالح بن زريك وساءت بعد صحبة متأكدة كما يقول بعض المؤرخين مع الكامل بن شاور الذي كتب إليه الشاعر قصيدته المشهورة التي مطلعها:

إذا لم يسـالِمْكَ الـزمـانُ فحـارِبْ وبـاعِـدْ إذا لـم تنتفـع بـالأقـارِبْ

الأسباب التي أدت إلى مقتله:

• ولم يزل عمارة مصاحباً للخلفاء العبيدين حتى استولى الأيوبيون على مصر فمدح صلاح الدين على سبيل التقيّة كما يظهر[١٠٩]، ولكنه ظل على وفائه للعبيدين، يرثي ديارهم الدارسة وقصورهم الخالية مما جعل بعض المؤرخين[١١٠] يثقون كل الوثوق بأنه إسماعيلي المذهب، وهذا ما رجّحه الخزرجي حين قال: (وأشعاره في مدائح القوم ناطقة بذلك) وأكّده المقريزي[١١١] حين استشفّ ميله إلى المذهب من قصيدته التي مطلعها[١١٢]:

رميتَ يـا دهـرُ كفّ المجـد بـالشَّلل وجيـدَهـا بعـد حُسْن الحُلْي بـالعَـطَل

يـا عـاذلي في هـوى أبنـاءِ فـاطمـةٍ لـك الملامـة إن قصّـرت في عـذلي

والتي تدل على أنه من رجال الفرقة الإسماعيلية التي تدعي أنها من نسل فاطمة، فقد كانت هذه القصيدة سبباً في موته كما يقول المقريزي[١١٣].

(١٠٧) الوفيات ٣/٤٣١.
(١٠٨) الوفيات ٣/٤٣١ وما بعدها وتاريخ اليمن عمالاة ص ٣٢.
(١٠٩) الوفيات ٣/٤٣٤.
(١١٠) كالخزرجي والمقريزي.
(١١١) تاريخ اليمن تحقيق د. حسن سليمان ص ١٦.
(١١٢) انظر الحاكم بأمر الله.. ص ٣٥٩.
(١١٣) تاريخ اليمن تحقيق د. حسن سليمان ص ١٦.

ولكننا لا نستطيع أن نقيم على ذلك برهاناً ما دمنا لم نقف على ديوانه، لأن الخزرجي نفسه لم يذكر قصيدة واحدة تنمّ على ذلك أو توحي بشيء منه، فلعل رأيه هذا لا يعدو إلا أن يكون تحاملاً على الشاعر بسبب اتصاله بالعبيدين الفاطميين (ذوي الصيت السيء في كتب السلف)، وقد رأيت كيف تحامل عليه فقهاء زبيد واضطروه إلى الرحيل إلى مكة ثم الإقامة والاستقرار في مصر، ويذكر البعض الآخر[١١٤] أن عمارة شديد التعصب للسنّة ولهذا هو بريء مما رُمي به ـ إن كان في اعتناق هذا المذهب ذنباً فقد أغراه الملك الصالح بن زريك ليعتنق مذهب الإسماعيلية فرفض في إباء، وهذا إن صح ينقض ما ذهب إليه أولئك المؤرخون، ويخرجه من هذه التهمة نقيّ الثوب والصحيفة.

ولسنا ننكر عليه مراثيه في العبيدين وتأسّفه عليهم، من ذلك قصيدته التي مطلعها:

لما رأيت عراصَ الحيّ خاليةً عن الأنيس وما في الربع ساداتُ[١١٥]

والقصائد الأخرى المثبوتة في الديوان، غير أن هذا لا يسوّغ لنا القول بأي حال من الأحوال أنه اعتنق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ما لم نعثر على أدلة دامغة في شعره غير تلك التي أشار إليها بعض المؤرخين كالخزرجي والمقريزي، فالشعراء وهذا ما لا شك فيه، يحلّقون في الآفاق فيمدحون ويرثون ولكن قلّما يصدقون لأنهم يقولون ما لا يفعلونه حقاً، ولعل المتنبي شاعر البلاط الحمداني خير ما نتمثل به في هذا الصدد، فقد أفضت به مدائحه والتي لم تثمر في الممدوحين ـ إلى الندم والتأسف لأنه كان يبحث عن الرخاء والرفاه والسلطة والرئاسة، وقد أصاب شيئاً من النعمة والرخاء ولكن لم يظفر بالسلطة والإمارة، فذمّ ممدوحيه أو أسف على مدحه إياهم، كما التمس شاعرنا عمارة العلم والشهرة والرفاه والرخاء وهدوء البال والاستقرار فظفر بشيء من ذلك في كنف العبيدين، وهذا ما كان يصبو إليه حين قال:

ويمّمتُ مصراً طلب الجاه والغنى فنلتهما في ظلّ عيشٍ ممتع

فلما تحقق ذلك أكثر من مدحهم ثم أكثر التأسّف عليهم حينما آل الأمر إلى الأيوبيين.

---

(١١٤)

(١١٥) تاريخ ثغر عدن ٢/ ١٧٠.

وعلى الجملة فقد كانت مراثيه في العبيدين وذمّه للأيوبيين وتأمره مع جماعة من المصريين لقلب نظامهم دافعاً إلى شنقه في شهر رمضان من سنة ٥٦٩هـ[١١٦]، وقيل أنه أنشد هذين البيتين وهو مصلوب:

وما تعلقت بالسرياق منتكساً ... لعلةٍ أوجبت تعذيب ناسوتي
لكنني ما نفقت السحر من قلمي ... عُذِّبتُ تعذيب هاروتٍ وماروت[١١٧]

كما أوردت مصادر أخرى بيتين آخرين وقالت أنه كان يترنّم بهما قبل صلبه.

نحن في غفلةٍ من النوم وللموت ... عيون يقظانةٌ لا تنام
قد فزعنا من الحمام سنيناً ... واسترحنا لما أتانا الحِمامُ[١١٨]

مؤلفاته:

ترك عمارة ديواناً غالبه في مدح الفاطميين، ومصنّفين مشهورين أحدهما يسمى (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) والآخر (النكت العصرية في أخبار وزراء الدولة المصرية)، وكتاباً آخر لا نعرف منه إلا اسمه وقد سماه الأنموذج[١١٩] نموذج ملوك اليمن[١٢٠].

وأضاف أحد المحققين كتاباً آخر سماه (أخبار الشعراء) فلعله الكتاب الذي يحتوي على تراجم شعراء اليمن في ذلك الزمن، وقد ألحق بالمفيد في أخبار صنعاء وزبيد تحقيق الأستاذ الأكوع.

نماذج من شعره:

قال يرثي الفاطميين:

لما رأيتُ عِراصَ الحي خاليةً ... عن الأنيس وما في الرَّبْع ساداتُ

---

(١١٦) تاريخ ثغر عدن ٢/ ١٧٠ والوفيات ٣/ ٤٣٥ نقلاً عن الخريدة للعماد الأصبهاني، والحاكم بأمر الله ص ٣٦٨، انظر أيضاً تاريخ اليمن عمارة تحقيق د. حسن سليمان مقدمة على ص ١٥.

(١١٧)

(١١٨) الحكمة عدد ٣٤ السنة ٧٥م ص٧٩.

(١١٩) تاريخ اليمن تحقيق الأكوع المقدمة ص٣٥ والحكمة عدد ٤٤ ص٧٩ ـ ٧٥م.

(١٢٠) تاريخ اليمن تحقيق د. حسن سليمان ص٧.

أيقنتُ أنهم عن رَبْعهم رَحلوا ... وخلّفوني وفي قلبي حزازات
سألت أبْله قلبي في السلو وقد ... يقال للبُلْهِ في الدنيا إصابات
فقال رأيي ضعيف لا يطاوعني ... كيف السلوّ وأهل الفضل قد ماتوا
يا رب إن كان لي في قربهم طمعٌ ... عجِّلْ بذاك فللتسويف آفاتُ[١٢١]

وقال في الشعر الوجداني[١٢٣]:

أفدي معذَّب مهجتي أفديه ... إن كان بذل حَشاشتي يرضيه
ظبيٌ تحيرت المحاسن والصبى ... في وجهه فعذرته في التيهِ
يا حبَّذا وردٌ أبيت على الرضى ... بالثَّم من وجناته أجنيهِ
تسبيك حُمْرةُ جمرةٍ في خدِّه ... أبداً وحُمْرة خمرةٍ في فيْهِ
وحياة نغمته اللذيذة ما دعت ... أذن ألذّ من الملامة فيهِ

وقال يرثي ابنه حسيناً[١٢٤]:

خطبتني الخطوبُ بالهمّ لمّا ... حدّثتني بالسُّن الحدْثانِ
يا لها نكبةٌ على نكبةٍ جا ... ءت وجرح يبكي بجرحٍ ثانِ
ومصاب على مصاب ونُكْل ... بعد نُكْل أصيب منه جَناني
رحّلوه إلى القرافة رغماً ... أودعوه للُّحْد والأكفان
كل عام للموت عندي نصيب ... في سراة البنين والإخوان

وقال يمدح الملك شمس الدولة أخا الملك الناصر ويحثه على مسيره لليمن:

ضاق الصعيد على جيادك بعدما ... ضمنت جيادك فتح كل صعيد
والغرب واليمن القعيدة أهله ... بالسيف من عدن وأرض زبيد
والسيف يلمع في الخواطر برقه ... بالسيف من عدن وأرض زبيد
فإلى متى أيدي الكُماة معوقة ... عن نشر ألويةٍ ونشر بنود
ومعاطف الخيل الخفاف إلى العدا ... تشكو خفاف أبّدة ولبود

(١٢١) نفس المصدر ص٧.
(١٢٢) تاريخ ثغر عدن ١/ ١٧٠.
(١٢٣) النكت ص٣٨٥.
(١٢٤) النكت ص٣٧٩.

أفلا رميت بها الفلاة مجرّدا عزماً تسدُّ به عِراضَ البيد
وخلعت مملكةً يقول طريفُها للدهر أرخ فيّ رجل تليد
وعذرت من حسد الرجال على العلى لما ظفرت بلذة المحسود[١٢٥]

نظرة عامة في شعره:

ترسَّمَ عمارة خطى شعراء عصور القوة وتأثّر طريقهم، وغالب شعره في المديح والإطراء، فقد مدح الزريعيين في عدن ثم الفاطميين في مصر، وكانت جلّ مراثيه في الأخيرين، حاشا مرثيته في زوجته وابنه حسين، كما تناثرت في ديوانه نماذج من الشعر الوجداني الذي يشوبه التكلف ويقل حظه في جماليات الشعر، ولعله نظمه على سبيل الترويض والدُّربة.

أما شعره في آل زريع فقد اختفى كما أسلفنا ـ وشعره في الفاطميين مثبوت في ديوانه والنماذج التي استخلصناها من كتب التاريخ تدل على وفائه للفاطميين وحبه لهم مما جعله يؤثر اللحاق بهم حين قال:

يا ربِّ إن كان لي في قربهم طمعٌ عجِّلْ بذاك فللتسويف آفات

(ب) يحيى بن أحمد بن يحيى:

يعدّ الشاعر يحيى بن أحمد من الشعراء البارزين الذين عاصرهم عمارة اليمني وترجم لهم في (مفيده)[١٢٦]، ولكنه لم يورد من شعره إلا النزر اليسير، كما أن ترجمته في بعض المصادر موجزة إيجازاً مُخلاً، فقد أغفلت أهم جوانب حياته، أما البعض الآخر منها[١٢٧] فيكتفي بذكر اسمه ومطلع قصيدته التي قالها في محمد بن سبأ.

النصر من قُرَنَاءِ عزمكَ فاعزمِ والدَّهر من أسرار حُكمك فاحْكُم

وقد تولى شاعرنا قضاء صنعاء، وكان يفِدُ إلى عدن ويرتاد مجالس الأدب

(١٢٥)
(١٢٦) تاريخ اليمن عمارة ص٣٢١.
(١٢٧) قره ١/ ٣١٠.

التي تعقد في دار المنظر ويناظر أدباءها ويمتدح ملوكها؛ مدح عمران بقصيدة أولها:

أيلوم طيفهم على هجرانه صبٌّ تجافى النومُ عن أجفانه[128]

ويقول المؤرخ الأكوع (إن الداعي عمران أجازه قبل القصيدة بألف دينار فلما مدحه بهذه القصيدة زاده ألفاً أخرى)[129]، وله مدائح في محمد بن سبأ منها قصيدته سالفة الذكر وقوله على لسانه:

أدركتُ أوتاري من الأعداءِ فملكتُ من عدنٍ إلى صنعاء

ولما وهب الداعي لابن سليمان[130] ألف دينار وهو من قومه ارتجل هذين البيتين:

لا فخر إلا إذا أقبلتُ مستلماً كفّ المكين طهير الدين مولانا
هي التي تهب الآلاف وافية إن كنت عراً فسل عنها ابن سلمانا[131]

وهي من قبيل الشعر التكسّبي المبتذل.

مقتله:

تحدثنا المصادر أنه لقي حتفه مذبوحاً على يد ابن مهدي في حصن المجمعة من مخلاف جعفر[132] وقيل مخلاف الشواني[133]، وقد كان الرجل شاعر الإسماعيلية وفصيحها كما يقول الأكوع، فلعل هذا السبب وحده هو الذي أدى إلى مقتله.

(ج) محمد بن زياد الماربي

أشارت المصادر إليه في معرض حديثها عن مدّاح ملوك بني زريع ولم تترجم له، ولكنها ذكرت أن له صلة بالأئمة آل الرسي[134] وقد استقطبه الصليحيون إلى

(١٢٨) نفس المصدر ١/٣١٠ ـ ٣١١.
(١٢٩) قرة ١/٣١٦.
(١٣٠) تاريخ اليمن ص ٣٢١.
(١٣١) تاريخ اليمن ٣٢٢.
(١٣٢) تاريخ اليمن ص٣٢٢.
(١٣٣) تعليقات الأكوع على الكتاب ص٣٢١.
(١٣٤) انظر الأدب والثقافة ص١٣١.

صفهم فمدحهم ومدح ولاتهم في الدملوه وعدن، وأوردت له بعض الأبيات يمدح بها أبا السعود سبأ بن أبي السعود بن زريع، منها قوله:

يا ناظري قل لي تراه كما هو ... إني لأحسبه تقمص لؤلؤه
ما أن نظرت بزاخرٍ في شامخ ... حتى رأيتك جالساً في الدملوه[١٣٥]

ويهنيء آل زريع لما أفضت إليهم منطقة الرعارع فيقول:

خلت الرعارع من بني المسعود ... فعهودهم فيها كغير عهود
حلّت بها آل الزريع وإنما ... حلّت أسود في مقام أسود[١٣٦]

وهناك عدد آخر من الشعراء الذين مدحوا ملوك بني زريع وبخاصة الداعي محمد بن سبأ. ولم نعثر على تراجمهم في المصادر التي بين أيدينا ومنهم:

١ - يحيى بن محمد الحسيني القائل مخاطباً الداعي محمد بن سبأ:

جلالُك ألبسَ العيد الجلالا ... ومجدُكَ فيه مجد العيد طالا
وعزّكَ ألبسَ الأعيادَ عِزاً ... تتيه به فصار له جمالا

٢ - ومنهم الشيخ سالم بن عمران التغلبي ومن قوله فيه:

هل للفضائل عن مديحك معزل ... أم هل لها من دون بابك موئل
شغلت صفاتُك ألسن الشعراء عن ... أن ينسبوا معها وأن يتغزلوا

٣ - وأحمد بن محمد الخباز... ومن قوله فيه:

هي الدولة الغرّاء والعز والنصر ... وطيب الثنا والفضل والمجد والفخر
لمن قوله فصل وباطنه حجى ... وظاهره بشرٌ ونائله غَمْر

٤ - وعبدالله بن أحمد الصنعاني.. ومن قوله فيه:

لم يدرِ كيف يقول فيك المادحُ ... أم كيف ينصفك الثناء مدائحُ
تأبى امتناعاً أن ينالك واصفاً ... أبداً كما امتنع السِّماك الرامحُ

٥ - وحاتم بن محمد الصنعاني[١٣٧] ومن شعره فيه قوله:

---

(١٣٥) قرة التعليق ص ٣٠٦ وتاريخ اليمن ص ٢٧٠.
(١٣٦) نفس المصدر ص ٣٠٨.
(١٣٧) وسماه الخزرجي في العسجد المسبوك (مخطوط) ص ٥٧ دعانة بن محمد الصنعاني.

قسماً بمجدك إنه لمشيد حقاً وإنك في الزمان وحيد
فاقعد بدست الحكم غير منازع والبس رداء المجد فهو جديد
وافخر على أهل الزمان فإنهم خول وإنك فيهم لعميد

٦ ـ والمقرىء أحمد بن مرزوق الذي قال في آل زريع:

آل زريع زرعتم العز الذي جادته منكم للسماح سحاب
لسنا نبالي بعد طيب أصولكم وفروعكم خُبُثَ الورى أم طابوا

٧ ـ وأحمد بن سالم ظفر ومن شعره فيه قوله:

زمانك أحيى ميّتات الخواطر وعصرك أندى دايرات الدوائر

٨ ـ وأحمد بن علي المعافري، ومن شعره فيه:

شهدت بفضلك العرب العرباء وعَنَتْ لك الأشياء والنُّظَراء
وترفّعت همم نراها فيك أن تأبى على أوصافها الشعراء[١٣٨]

والتكلف والقلق ظاهران على البيتين، مع اضطراب واضح في الإيقاع الموسيقي في صدر البيت الأول.

شعراء وفدوا إلى اليمن من الخارج:

(١) الرشيد بن الزبير:

زار اليمن في عهد حاتم بن أحمد اليامي ومدحه بقصيدة مطلعها:

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا فلست أنال القحط في أرض قحطان

فأثابه حاتم وأكرمه وبنى له قصراً ضخماً محاطاً بالأسوار العظيمة والحدائق الغناء على حد تعبير صاحب قرة العيون[١٣٩]، وشاع صيت قصيدته حتى بلغت أسماع الداعي (ولعله محمد بن سبأ أو ابنه عمران) فكتب بأبياتها إلى صاحب مصر، ولما انحدر الشاعر إلى عدن نال منه الداعي وأودعه السجن[١٤٠] وأخذ

(١٣٨) وردت هذه النماذج في قرة العيون ١/ ٣١٠ ـ ٣١١ والعسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك خزرجي (مخطوط) ص ٥٦ ـ ٥٧ وتاريخ اليمن خزرجي (مخطوط) ص ٤٩ وما بعدها.

(١٣٩) قرة ١/ ٣١٢.

(١٤٠) نفس المصدر ١/ ٣١٢ والوفيات تحقيق د. إحسان عباس ١/ ١٦٠ ـ ١٦٣.

أمواله. وبعث أخوه مهذب الدين الحسن بن الرشيد بقصيدة إلى الداعي يستجلب فيها عطفه ومطلعها.

ما كان بعد أخي الذي فارقته ... ليبوح إلاّ بالشكاية لي فَمُ

فظفرت برضاء الداعي فأطلق سراحه، ولكن ابن الربيع يقول: (وأنفذه إلى صاحب مصر مقيداً وقتله شاور لغير هذه الأسباب سنة ثلاث وستين وخمسمائة)[١٤٢] لميله إلى أسد الدين شيركوه كما يقول العماد صاحب الخريدة.

وجدير بالإشارة أن شاعرنا هذا هو الذي عهد إليه الفاطميون بمهمة تقليد الدعوة لعلي الأغر فوجده قد مات فقلدها محمد بن سبأ ونعته بالملك المعظم[١٤٣].

نماذج من شعره:

لئن خاب ظني في رجائك بعدما ... ظننتُ بأني قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتني كل مِنّةٍ ... ملكت لها شكري لدى كلّ موقف
لأنّك قد حذّرتني كل صاحبٍ ... وأعلمتني أنْ ليس في الأرض مَن يَفي[١٤٤]

ولا ندري فيمن قيلت هذه الأبيات؟

وقال مادحاً علي بن حاتم اليامي الهمداني:

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا ... فلست أنال القحط في أرض قحطان
وقد كفلت لي مأربٌ بمأربي.. ... فلستُ على أسوانَ يوماً بأسْوانِ
وإن جهلت حقي زعائف خندق ... فقد عرفت فضلي غطارف همدان[١٤٥]

ومن شعره قوله:

جلّتْ لديّ الرزايا بل جَلّتْ هِمَمي ... وهل يضرّ جلاء الصّارم الذّكرِ
غيري يغيّره عن حُسن شيمته ... صرف الزمان وما يأتي من الغيرِ
لو كانت النار للياقوت محرقةً ... لكان يشتبه الياقوتُ بالحجرِ
لا تغررنّ بأطماري وقيمتها ... فإنما هي أصدافٌ على دُررِ...

(١٤١) نفس المصدر ص٣١٢ ـ ٣١٣.
(١٤٢) الوفيات ١/ ١٦٠ ـ ١٦٣، وقرة ١/ ٣١٢.
(١٤٣) السوك الجندي (مخطوط) ص ١٨٦.
(١٤٤)
(١٤٥) الوفيات ١/ ١٦٠ ـ ١٦٣.

ولا تظنّ خفاء النجم من صغرٍ فالذَّنْب في ذاك محمول على البصر[146]

ولأخيه مهذب الدين قصيدة يمتدح فيها آل زريع ويستجلب عطفهم منها:

ما كان بعد أخي الذي فارقتُهُ ليبوح إلاّ بالشكاية لي فَمُ
أقيال باسٍ خير من حَملوا القنا وملوك قحطان الذين هُمُ هُمُ
متواضعون ولو ترى ناديهم ما اسْطعْتَ من إجلالهم تتكلمُ[147]
وكفاهم شرفاً ومجداً أنهم قد أصبح الداعي المتوّج منهم

ويورد ابن خلّكان في ترجمته له مؤلّفه الذي أسماه: (جنان الجنان ورياض الأذهان)[148].

(٢) ابن قلاقس:

شاعر الإسكندرية أبو الفتوح نصرالله بن عبدالله بن قلاقس اللّخمي الملقب بالقاضي الأعز، يعد من الشعراء البارزين في عصر الدولة الفاطمية، وكان مولعاً بالرحلات والأسفار[149] دخل عدن في أواخر عهد الدولة الزريعية حينما أفضت السلطة إلى ياسر بن بلال ـ وكان كريماً معطاءً ـ حتى قيل أنه أثرى فركب البحر سنة ٥٦٣هـ وفرّق جميع ما كان معه وقفل راجعاً إلى عدن، ولما دخل على ياسر أو عمران أنشده:

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردّوا فعدنا إلى مغناك والعَوْد أحمد

ووصف غرقه في قصيدة أخرى مماثلة فقال:

سافرْ إذا حاولت أمرا سارَ الهلالُ فصار بَدْرا
والماء يكسب ما جرى طيباً ويخبُثُ ما استقرّا
يا راوياً عن ياسرٍ خبراً ولم يعرفه خبرا
إقرأ بعزة وجهه صحف المنى إن كنت تقرا

(١٤٦)
(١٤٧) قرة ١/٣١٣.
(١٤٨) الوفيات ١/١٦١ ـ ١٦٣.
(١٤٩) الوفيات ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

والـثُـمْ بـنـانَ يـمـيـنـه وقـل الـسـلام عـلـيـك بـحـرا[150]

فأجازه عليها ألف دينار كما روى صاحب قرة العيون[151].

ومن شعره يستغيث ببعض ممدوحيه ولعله ياسر نفسه:

وغـلـطتُ فـي تـشـبـيـهـه بـالـبـحـر الـلـهـم غـفـرا
أولـيس نـلـتُ بـذا غِـنـىً جـمّـاً ونـلـتُ بـذاك فـقـراً

وتوفي ابن قلاقس في عيذاب سنة ٥٦٧هـ وقيل ٦٠٧هـ[152].

الأسباب التي أدت إلى انهيار حكم آل زريع:

والآن وقد فرغنا من تناول المعالم الرئيسية للحياة الأدبية في عدن في عصر بني زريع - بما فيها من ألوان القصور والإيجاز - ينبغي أن نعرّج على الظروف الحرجة التي ساعدت على تقويض أركان الدولة الزريعية. ولسنا نغلو ولا نسرف إن قلنا أن هذه الدولة قد احتضنت الحركة الأدبية في اليمن نيفاً وثلاثين سنة وإن لم تثمر أثماراً كبيرة لأسباب من أهمها، الصراعات المحتدمة بين بني الغارات وبني زريع على السلطة والتي استنزفت ميزانية البلاد وأرهقت العباد، وضعف التدوين أو ضياع المدوّنات التي حفظت حصيلة وثمرة الحركة الأدبية والعلمية وقتئذ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سلف، حين قلنا إن غالبية المصادر التي بين أيدينا أغفلت جوانب هامة من هذه الحركة وآثرت الصمت أو الإيجاز حينما تناولت تراجم الأدباء والشعراء في تلك الحقبة، وركزت على مشاهير الشعراء الذين صالوا وجالوا في البلاط الزريعي من الفاطميين في عدن، أو الوافدين عليها من شمال اليمن، أو مصر الفاطمية، كالعندي وعمارة وابن قلاقس شاعر الإسكندرية، زد على ذلك التشابه الجليّ في المواضيع الواردة في ثنايا تلك المصادر، مما يدل على أنها استقت من مصدر واحد تقريباً مع اختلافات يسيرة.

ولننتقل إلى الأسباب التي أدت إلى زوال الحكم الزريعي من عدن.

هناك سببان رئيسيان - فيما نعلم - أدّيا إلى انهيار هذا الحكم:

---

(١٥٠) الوفيات ص ٣١٤ - ٣١٥ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/٢١٩.
(١٥١) قرة ١/٣١٣.
(١٥٢)

أولهما: غزو آل مهدي لعدن أو ما يصاقبها من المناطق الواقعة تحت النفوذ الزريعي.

ثانيهما: استيلاء الأيوبيين على عدن سنة ٥٦٦هـ. وقد سبقت الإشارة إلى النقطة الأولى حينما قلنا ان آل مهدي عاثوا فساداً في لحج وأبين[١٥٣] والجوّة، فقتلوا الأهلين وأحرقوا المدن والقرى وجرت بينهم وبين آل زريع عدة وقائع في الجوّة[١٥٤] وذي عدينة (تعز)[١٥٥] دانت على أثرها حكومة عدن لهم بالطاعة ودفعت الجزية. ومما رواه المؤرخون أن الزريعيين استغاثوا بآل حاتم[١٥٦] وهم شيعة إسماعيلية[١٥٧] فناصروهم في محنتهم وحربهم، مما يدل على ضعف لحق بهم من جرّاء هذه المعارك والحروب، كما كانت العلاقات السياسية بينهم وبين آل نجاح السنّيين متوترة كما أسلفنا، بسبب هجوم الأسطول الزريعي على زبيد وانقطاع المواصلات التجارية بين القطرين لمدة ثلاث سنوات. وليس بمستبعد أيضاً أن تكون علاقة عدن بالسلطنات والدول السنّية الأخرى المنتشرة في أرجاء اليمن علاقة متردية، فكل سلطنة أو دولة من هذه الدول تتربص بأختها الدوائر وتعد العدة للانقضاض عليها إذا تهيأت الأسباب وسنحت الفرص.

استيلاء الأيوبيين على عدن سنة ٥٦٩هـ:

وقدم الأيوبيون إلى عدن يوم الجمعة الثامن عشر أو التاسع عشر من ذي القعدة سنة ٥٦٩هـ كما يقول المؤرخ[١٥٨] بامخرمة، وقد أثخنتها جراح الحرب وفتّت في عضدها أهوالها المريعة، وكان يتربع على عرشها المتداعي ياسر بن بلال المحمدي الذي تولى مقاليد البلاد بعد وفاة عمران بن محمد سنة ٥٦٠هـ[١٥٩]، فبسطوا نفوذهم عليها وقبضوا على بعض أمرائها، وظفر البعض الآخر بالفرار فلجأ

---

(١٥٣) هدية الزمن ص ٦٣ وتاريخ ثغر عدن ٢/١٢٧ ـ ١٢٨.

(١٥٤) طبقات هامش ص ١٦٦.

(١٥٥) قال الأكوع ص ٣١٩: (عدينة بالتصغير ربض من أرباض تعز القديمة وهي الآن القائمة العمارة المسماة وتعزوبها جامع الملك المظفر وغيره من مخلفات الدولة الرسولية) انظر أيضاً قرة ١/٣١٩.

(١٥٦) غاية الأماني ١/٣١٩.

(١٥٧) الحكمة عدد ٢٧ فبراير مارس ٧٤م ص ٩ الدولة الصليحية سلطان ناجي.

(١٥٨) تاريخ ثغر عدن ١/٣٧ ترجمة توران شاه.

(١٥٩) قرة ١/٣١٩ وتاريخ ثغر عدن ٢/١٨٦.

إلى حصن الدملؤة، وهناهم بظفرهم هذا واستيلائهم على عدن شاعر الدولة الزريعية أبو بكر العندي بقصيدة طويلة مطلعها:

أعساكراً سيّرتها وجنودا أم انجماً أطلعتهنّ سُعُودا[160]

وفي سنة ٥٨٤هـ باع جوهر المعظمي لهم حصن الدملؤة[161] الذي يعتبر من أهم معاقل آل زريع، فقد تحصن فيه جوهر المذكور زمناً طويلاً نائباً من قبلهم.

أسباب الغزو الأيوبي على اليمن:

ويورد المؤرّخون الأسباب التي دفعت الغزاة للاستيلاء على اليمن ومن هذه الأسباب:

١ ـ استئصال شأفة آل مهدي الذين عاثوا وأفسدوا في اليمن ـ كما أسلفنا، بدعوة صريحة من أهل اليمن. فقد ذكر ابن الديبع نقلاً عن الخزرجي قوله: «أن صلاح الدين بلغه أن باليمن إنساناً يسمّى عبدالنبي بن مهدي قد استولى على اليمن وزعم أنه ينشر ملكه حتى الأرض كلها فجهز له أخاه توران شاه فاستولى عليها»[162]. وقبل أن رجلاً[163] من أهل اليمن يسمى ابن النساخ كتب رسالة بليغة إلى الخليفة ببغداد يشكو فيها من ابن مهدي ويذكر قبيح سيرته وسوء عقيدته، بينما يقول بامخرمة ما مفاده أن أحد أخوة الشريف وهاس الذي قتله عبدالنبي استغاث واستصرخ بالخليفة في بغداد فكتب الخليفة إلى صلاح الدين أن يجرد في نصرته جيشاً لقتال عبدالنبي وقد فعل[164].

٢ ـ وقال المؤرخ سلطان ناجي: (والسبب الحقيقي هو أن صلاح الدين أراد أن يؤمن لنفسه اليمن ليلجأ إليها في حالة حدوث صراع سياسي بينه وبين مولاه السلطان نورالدين زنكي واستيلاء الأخير على الديار المصرية[165].

٣ ـ هذا في حين يتهم ابن واصل صاحب «مفرج الكروب» عمارة اليمني ويقول: «إنه وصف لتوران شاه اليمن وصفاً حسناً وعظمها في عينه فاستولى

(١٦٠) هدية الزمن ص ٦٥ وتاريخ ثغر عدن ص ١/٣٧ و٢/٣٧٧.
(١٦١) تاريخ ثغر عدن ٢/٤١ ـ ٤٢.
(١٦٢) قرة ١/٣٧٥ ـ ٣٧٦.
(١٦٣) نفس المصدر ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.
(١٦٤) تاريخ ثغر عدن ٢/١٢٧ ـ ١٢٨.
(١٦٥) الحكمة العدد ٣١ أول سبتمبر ٧٤م تاريخ اليمن الإسلامي سلطان ناجي ص ٦٤.

عليهاء[١٦٦]، وهذا هو الأهم في تقديرنا، ولا تكمن الأهمية فيما رواه ابن واصل من اتهامه عمارة بالخيانة، بل في رغبة الأيوبيين - كغزاة مستعمرين في البحث عن مناطق نفوذ أكثر. ولعل من المفيد أن نشير، على سبيل التذكير، إلى حادثة السفينة دوريا دولت الهندية التي جنحت على شاطىء عدن فانتهبها البدو كما تقول المصادر البريطانية، هذه الحادثة - إن صح وقوعها - لا تعدو إلا أن تكون مبرراً للاحتلال فقط، فالبريطانيون يسعون وراء الموقع الاستراتيجي للمنطقة الذي يربط الشرق بالغرب، بل ولعل المستعمرين أنفسهم هم الذين يروجون لمثل هذه الشائعات ويضعون هذه المبررات لكسب رضاء السواد الأعظم من الناس.

وعلى الجملة فقد سيطر الأيوبيون على اليمن حوالى سبع وخمسين سنة واستنابوا عدداً من الولاة على أقطارها ظلوا حتى عهد بني رسول.

(١٦٦) غاية الأماني ص ٣٢٣.

(١٦٧) تكوين اليمن الحديث د. السيد مصطفى سالم الطبعة الثانية ص ٥٧.